(رواية)

رأس بلا جسد

obeikandl.com

فهرسة أثناء النشر/ إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية. إدارة الشئون الفنية

صقر، محمود

رأس بلا جسد (رواية)/ د. محمود صقر / ط ١ / القاهرة: مركز الكتاب للنشر، ٢٠١٤م.

١٤٤ ص؛ ١٤×٢٠سم

تدمك: ٢-٥٢٨-٢٩٤-٩٧٧-٩٧٨

رقم الإيداع: ٢٠١٤/٩٢١١

دار النشر:	مركز الكتاب للنشر
عنوان الكتاب:	رأس بلا جسد
المؤلف	د. محمود صقر
رقم الطبعة:	الأولى
تاريخ الطبع:	٢٠١٤
تنسيق عام:	سلوى الكشكي
التصميم الداخلي:	سامح غريب
تصميم الغلاف:	م. هبة إمام

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة للمؤلف

ويحذر طبع، أو تصوير، أو ترجمة، أو إعادة تنضيد للكتاب كاملًا أو جزئيًا، أو تسجيله على أشرطة كاسيت، أو إدخاله على الكمبيوتر، أو برمجته على أسطوانات ضوئية، إلا بموافقة الناشر الخطية الموثقة

مركز الكتاب للنشر

شارع الهداية - قطعة ١ - بلوك ١٨ - (برج نور ١) حي السفارات - مدينة نصر - القاهرة

ت: ٢٢٧٠٤٠٩٥ - ٢٢٧١٣٠٣٧ فاكس: ٢٢٩٠٦٢٥٠ - ٢٦٧٠٦١٥٤

www.markazelkitab.com E-mail: markazelkitab@hotmail.com

obeikandl.com

(رواية)

رأس بلا جسد

دكتور
محمود صقر

مركز الكتاب للنشر
٢٠١٤

obeikandl.com

obeikandl.com

١

قال لها: أحبك!

احمرت وجنتيها وخجلت ولم ترد.. أمسك يدها.. سحبت يدها بهدوء.. وأفاقت ثم هربت مسرعة إلى خارج بيته ثم إلى بيتها.. دخلت حجرتها ثم نامت في سريرها، فلم يغمض لها جفن حتى الصباح.. تحرك قلبها.. نبض بحبه.. خجلها منعها أن تقول له: «كم أحببتك»!

في اليوم التالي لم تخرج لتقابل «نادية» أخته خارج الكفر؛ لتذهب معها إلى المدرسة.. انتظرها.. كلما مر به الوقت زاد رعبه، وخاف أن تكون قد قالت لأمها ما قاله لها.. ظل شارد الذهن حتى عاد في آخر اليوم إلى الكفر.. لم ينتبه لدروسه، ولم يذق الطعام.. أرسل إليها أخته ولم يقل لها شيئاً.. تعللت بأن تسأل عنها لأنها لم تذهب إلى المدرسة.

سأل عنها «أم الخير» أمه إن كانت قد رأتها.. لكنها أخبرته أنها لم تذهب إلى بيتها في هذا اليوم.. أخته تأخرت.. انتظرها.. مر الوقت بطيئًا.. لم تأت.. لم يعرف كيف يتصرف؟!

لم يقدر على التفكير والانتظار منذ الأمس.. حاسب نفسه ووبخها لماذا اعترف لها بحبه؟... هل يذهب إليها؟!.. تردد.. ثم خرج مسرعًا إلى بيتها.. علل ذهابه إلى هناك أنه يريد أن يرى أخيه «سالم» الذي يعمل عند أبيها ..!

نادى على «سالم» بصوت مرتفع حتى تسمعه.. سمعته فراحت تنظر إليه من نافذة حجرتها فاطمأن قلبه أنها بخير!.. أومأ إليها برأسه ففهمت

ما يريد، لم تفكر.. خرجت مسرعة.. هبط درج بيتها إلى خلف البيت.. نظر إليها فوجدها تبتسم.. فاطمأن أكثر، وكانت أسعد لحظات حياته.. لم يعش لحظة مثلها في السبعة عشرة سنة التي عاشها!

لقد عرف قلبه الحب عندما نبض بحبها.. ولقد أيقن أنها تحبه.. أمسك يدها لعلها تتركها له، ولكنها هربت مسرعة، فضحك وخرج مسرعًا.

***

كم داعب حبه خيالها رغم أنها لم تتجاوز الثالثة عشرة من عمرها.. لكن قلبها فضحها أمامه.. خجلت من نفسها.. قلبها كاد أن ينخلع منها؛ ليطير إليه.. ظلت تقاوم ذهابها إلى أخته.. قاومت كثيرًا.. لم تقدر.. خرجت مسرعة إلى بيته فوجدته في انتظارها.. كأن قلبه أخبره أنها سوف تجئ.. عندما رأته عادت أدراجها مسرعة.. لكي تعاود أحلامها في حجرتها.. كم عاتبت نفسها في ذهابها إليه.. نعم هي تحبه، ولكن كل ما حولها يمنعها أن تبوح بحبها ..! فآثرت على نفسها أن تعيش حبها في أحلامها، وبين جدران حجرتها.

بعد أن اعترف لها بحبه، كان يسير خلفها، كأنه ظلها.. يحميها.. يحرسها من كل شيء!!.. أما هي فقد كانت تصعد إلى سطح بيتها في يوم الجمعة، وتختفي خلف القش لتراه.. تراه من بعيد، وهو يسير مع «الشغيلة» إلى (العزبة الكبيرة).. ولم يمنعها الفارق بينها وبينه.

هي: بنت والديها الوحيدة.. ومَنْ والديها الحاج «مصطفى» والحاجة «اعتدال» من أغنى ثلاثة أسماء في الكفر.. هم الدكتور «توفيق الشربيني»

وزوجته «سعاد» اللذان يملكان (العزبة الكبيرة).. وعمدة الكفر «رضوان».. و«مصطفى».. ولا يوجد غيرهم من يمتلك مثلهم من الغني.. والكل يعمل عندهم أُجراء.

هو ابن «أبو طاحون» بائع «البطاطا».. هو وثلاثة غيره.. «فوزية» زوجة «عبد التواب»- تاجر الحمير، و«هو» و«نادية» صديقة «أمل مصطفى».. و«سالم» الذي يعمل «تملي» عند «مصطفى».

هو قطع الفقر أيامه ولياليه.. وأكل على جسده وشرب.. أجير في (العزبة الكبيرة) منذ نعومة أظفاره.

هي جسم بض.. بشرة بيضاء - رغم حداثة سنها، إلا أن أيامها زادت هذا الجسم جمالاً وبهاءً.

هو جسم نحيل.. كسر الفقر ظهره.. ترك أثره على ظهره.. إذا نظرت إليه حسبته قد ترك الشباب بسنين ليدخل في الكهولة.

آمن «ماهر أبو طاحون» أنه لا يوجد مستحيل.. المستحيل نحن الذي نصنعه.. فنزل يعزق أرض (العزبة الكبيرة) مع الرجال، بدلاً من أن يعمل مع «العيال»؛ حتى يحصل على أجر خمسة وعشرين قرشا بدلا من عشرة قروش.. عاش ظروفه، ولم يهرب منها.. كان يحلم، ولكن لم يهرب من الواقع، بل كان يسلى نفسه أثناء الشغل مع الرجال بأحلامه، حتى ينسى ألم ظهره الذي كاد أن ينكسر.. صنع من أحلامه نسيج حياة يقهر بها ظروفه.. وجاء حب «أمل» ليزيد أحلامه تحليقًا، حتى كادت أحلامه تعانق السماء.. كتمها داخله، فكانت كالبركان تغلي فتزيده قوة وشجاعة، فأصر أن يواصل تفوقه - وهو على أعتاب الثانوية العامة.

٢

(العزبة الكبيرة).. تقع على جسر الترعة.. يملكها الدكتور «فاروق الشربيني».. أستاذ الفلسفة بجامعة القاهرة وزوجته «سعاد»، ويعيش معهما «محي» الأخ الوحيد لـ«سعاد الشربيني» وفي نفس الوقت ابن عم الدكتور.. لم يكن «الشربيني» ابن كفر «باكوش».. ولكن يعد واحدًا منهم.. يشاركهم في كل شيء؛ رغم أن أرض (العزبة الكبيرة) يفصلها عن أرض الكفر جزيرة واسعة مهجورة، تغطي أرضها الصفراء أشجار السنط والشوك وكثبان الرمل؛ كأنها حد طبيعي بين الفقر والغني.. فقر أهل (باكوش) وغني «الشربيني».

(العزبة الكبيرة) مصدر رزق لكل أهل الكفر تقريبًا.. القليل يعمل في أرض العمدة «رضوان»، وأيضا في أرض «مصطفى»، ولكنهم في شكل «تملية»، أما في (العزبة الكبيرة) العمل فيها يكون عملاً بأجر أسبوعي.. يعمل الأجير من يوم الجمعة حتى يوم الأربعاء؛ ويتقاضى أجره ليلة الأربعاء لينفق على أولاده، ويحضر لهم ما يحتاجونه من سوق «الخميس»، على أن يواصل عمله صباح الجمعة.

يعمل في (العزبة الكبيرة) عائلات كاملة الأب والأم والأولاد – سواءً صغارًا أو كبارًا فكل له عمله.. و(العزبة الكبيرة) تلتهم هذه الأيدي الفقيرة؛ لتطعم هذه الأفواه الجائعة، وقد كانت لا تبخل عليهم بقوتها، لا هي ولا صاحبها.. يتوسط أرض (العزبة الكبيرة) «سرايا» عتيقة – مبنية على الطراز التركي، ويوجد على جانبي الدرج العتيق أسدان

يحرسان مدخلها.. كما يوجد أمامها مساحة واسعة يظللها شجرة «جميز» عتيقة ونافورة مهجورة.. وتوجد خلفها «حظيرة المواشي» وماكينة مياه يطلق عليها «وابور الميه»، لتسقي أرض العزبة من ترعة فرعية - تتفرع من الترعة الكبيرة - التي تمر بمحاذاة أرض (العزبة الكبيرة)، كما يوجد بها حجرة واحدة ينام فيها عم «محمد» رجل عجوز.. نحيل الجسم، يتولى مسئولية «وابور المية».. ولا يعيش في السرايا إلا رجل عجوز آخر جاء به «الشربيني» من القاهرة، ليكون مسئولاً عن كل شيء في السرايا، ويقوم بخدمة من فيها وهو عم «عرفان».. ويجاورها مخزن للأسمدة والمعدات القديمة.. ولا يسكن أحد على أرض العزبة إلا الخفراء، الكل ينصرف مع نهاية يوم العمل.

«فاروق» لم ينجب من «سعاد».. فاعتبر «محي» ابن عمه ابنه، رغم فشله في التعليم إلا أنه رعاه، وعاش في كنفه- بعد أن فقد أبويه، بل كان يعتبر نفسه صاحب (العزبة الكبيرة)، فهو الآمر الناهي في غياب«الشربيني» وزوجته.. ورغم مدة الزواج الطويلة بين الدكتور «فاروق» وبين ابنة عمه «سعاد الشربيني» إلا أنهما لم يفقدا الأمل في الإنجاب.. فقد كانا يذهبان بين فترة وأخري إلى الدول الأوروبية لإجراء الفحوصات الطبية من أجل ذلك، وفي غيابهم ينقلب حال العزبة رأسًا على عقب، عندما يتولى «محي» زمام الأمور فيها.. ترى الفلاحين يجرون هنا وهناك خوفًا من بطشه... ولا يقترب أحد من السرايا اتقاء شره، ولا تعود الطمأنينة إلا بعد عودة «الشربيني» فلا يجرؤ أحد أن يقدم مظلمته له.. فالفقر ذل الأنفس وكسر الأعين، والكل يخاف من جوع الصغار والكبار.. فالجوع

لا يرحم شيبة كبير ولا ضعف صغير، فإذا اشتكي أحد من معاملة «محي» القاسية له، علم أنه سوف يذوق الأمرين، وخاصة أن «الشربيني» كثيرًا ما يغيب عن (العزبة الكبيرة)، فالكل يفوض أمره إلى الله، ويكتم فمه ولا يتكلم - رغم سؤال «الشربيني» المتكرر، حتى شعر أن الأمور تسير على خير ما يرام في غيابه.

في أحد أيام يونيو الحارة.. انتشر بين «الشغيلة» خبر سفر الدكتور «الشربيني» وزوجته للخارج.. فأيقن الناس أنهم مقبلون على أيام شديدة القسوة عندما يتولى «محي» الأمور.. نظر الناس إلى سيارة «فاروق» وهي تمرق على الزراعية، مخلفة وراءها ترابًا كثيفًا، تمنوا الو بقي، حتى لو وضعوا التراب على رؤوسهم.. ولكن ليس هناك بد.

في صباح اليوم التالي.. سرى خبر لكل نفر يدخل أرض العزبة.. أن يتجمع تحت شجرة «الجميز»، ينتظر قرارًا أصدره «محي بيه».. فعلم الناس أن أيامهم القادمة لا تبشر بالخير.. ظل الكل وقوفًا حتى صحى «محي» من نومه، وخرج ليوزع عليهم العمل من جديد، حتى يعلم الجميع أن سيدهم الجديد هو«محي الشربيني».

كان «ماهر أبو طاحون» قد تولى العمل في إسطبل الخيل كي يهتم برعايتها، وترك العمل في (العزبة الكبيرة).. الكل ذهب إلى عمله ونفذ الأوامر التي صدرت إليه، وذهب «ماهر» إلى الإسطبل، لينفذ ما أمر به.. مرت الأيام ثقيلة ومُرَّة على الفلاحين.

وقبل أن ينتهي يوم من أيام «الشغيلة».. سري خبر بسرعة البرق في كل أنحاء أرض العزبة.. أن «ماهر بن أبو طاحون» قد سرق.. والكل

عليه ترك عمله والتوجه إلى السرايا فورًا.. فعلم الناس أن «ماهر» هالك لا محالة.

جرى الناس من بين الأشجار، ليصلوا إلى السرايا، فوجدوا «ماهر» معلقًا من قدميه، ينتظر أن يخرج سيده ليجلده.. اللحظات مرت ثقيلة على قلوب الوقوف.. البعض بكى مما رأى، والبعض أخفى وجهه مما رأى.. وتهامس الجميع: ماذا سرق «ماهر»؟.. علموا انه سرق عشرة جنيهات من السرايا.. لم يصدق أحد ما سمع.. فهم يعرفون «ماهر».. فقد رفع رؤوسهم يومًا وكرمه الجميع، لتفوقه في الشهادة الإعدادية، فعلموا أن هذه مكيدة لـ«ماهر» عندما رأوا «مدحت رضوان» ابن عمدة الكفر يخرج مع «محي» من داخل السرايا، فالكل يعلم أن «مدحت رضوان» يكره «ماهر» رغم أنه ليس من سنه، فـ «مدحت رضوان» معيد في كلية الزراعة بـ(الزقازيق)، ولكن كم تعرض لـ«ماهر» وضربه، فكرهه «ماهر» من كل قلبه.

وقف «مدحت» في «بلكون» السرايا مبتسمًا، فكرهه الناس، وهبط «محي» وفي يده الكرباج بعد أن شق الجمع الغفير، فقد تجمع الناس بعد أن سرى الخبر إلى الكفر، وهوى عليه بالكرباج، ليدمي جسده الفقير، فصرخ «ماهر» صرخات ملأت المكان وخلعت قلوب الناس، ثم كتم أنفاسه، ليزيد صبره.

شقت «أم الخير» جموع الناس لتذهب إلى ابنها المعلق؛ لتتلقى عنه الضربات وتستر عورته بعد أن مزق الكرباج ملابسه، فضحك «محي» بهستيرية عندما وقعت «أم الخير» على قدميه تقبلها، فسكت عن جلد

«ماهر» عندما سقطت على الأرض، بعد أن أدمى الضرب جسده النحيل، أمر «محي» أن يفك الفلاحون «ماهر» ويربطونه في جزع شجرة «الجميز» إلى الصباح، ولا يغادر أرض العزبة، حتى يقضي ما عليه في العمل، سخرة في السرايا لمدة شهر كامل، وأمر الناس أن تنصرف، أنزل الناس «ماهر» فاقد الوعي، وكوموه تحت جزع الشجرة وتركوه.. بعد أن حملوا «أم الخير» و«نادية» إلى الكفر.

obeikandi.com

٣

ظل «ماهر» مربوطًا حتى الصباح.. مر «الشغيلة» عليه- وقد تجمع الذباب على جسده، فأعرضوا عنه بعيونهم، وهو يبكي.. كسير العين والقلب، ويصرخ من داخله: «أنه لم يسرق» يقولها لكل عين تنظر إليه.

أمر «محي» عم «عرفان» أن يفك وثاقه، فوجده جثة - ما زالت تنبض فيها الروح.. أجلسه وعيناه يتساقط منها الدمع، لعلها تغسل بعضًا من آلام هذا الصبي، وسمع همسه «والله لم أسرق شيئًا يا عم عرفان»، فرد الرجل عليه :

- عارف يا ابني إنك مظلوم.. عارف والله.. ربنا ح يظهر الحق قريب.. أصبر يا ابني.

نظر «عرفان» خلفه فوجد «محي»، فتظاهر أنه يفك وثاق «ماهر»، ووضع أمامه بعض الطعام؛ حتى يقوى على أيامه القادمة، ولكن «ماهر» نظر إلى الطعام؛ وكأنه لا يراه.

لا يوجد مع «أبو طاحون» و«أم الخير» عشرة جنيهات؛ ليفكا بها أسر ابنهما.. باعت «أم الخير» كل ما تملك، واستدانت من نساء الكفر؛ حتى جمعت العشرة جنيهات، وذهبت بها إلى «محي»، ولكنه رفض حتى يظل «ماهر» على هذه الحالة، فرجعت كسيرة القلب.. دامعة العين، بعد أن رأت ابنها من بعيد، ولا يقدر أن ينظر إليها!!

obeikandi.com

ولم يكن يشغل «ماهر» إلا نظرات الناس إليه.. فقد عرف الجميع أنه سارق وهو لم يسرق.. ولكن كيف يقول للناس؟!.. فصوت «محي» الأقوى والأعلى.. وعلي الناس أن تصدق الأغنى، أما صوت الفقير مبحوح.. مقطوع الأوتار.. لا يسمعه أحد.. أيقن «ماهر» أنه لو حلف بأغلظ الأيمان لن يصدقه أحد، وإن صدقوه، فلن يقولوا ذلك جهارًا نهارًا.. فجوع البطون قد يخرس الألسنة ..!

عند الجميع هو سارق، فانكسر قلبه وخارت عزيمته، رغم أنه كان يؤمن بأنه لا يوجد مستحيل، ولكنه تأكد أن سور الفقر عال.. ولكن كلما حاول تجاوزه خارت قواه، والتصقت به تهمة هو بريء منها ..!

الذي زاد انكساره حبه «لأمل»، فقد أحبها وحلم بها، فالحب يرقق القلب، وقد يجعله يبكي لمجرد الفراق، فماذا يفعل قلب المحب إذا هوت عليه سياط «محي»؟!... والأكثر أنه سارق، حاول أن ينسي حبه في أيام عذابه.. ولكنها كانت طويلة.. شاقة.. مليئة بالذل والانكسار، ولكن طبع الحب غريب، إذا حاولت أن تنساه، شب في قلبك نارًا لا تهدأ، فغلبه الحب كثيرًا حتى خارت عزيمته أمامه.. فترك الأيام هي التي تفصل فيه.

كان «ماهر» بعد أن ينهى عمله، يذهب إلى جزع شجرة «الجميز»؛ لينام حتى الصباح على خرقة قديمة، وضعها له «عرفان»؛ لينام عليها، فيحتضن الشجرة وينام، لا توقظه إلا شمس الصباح.

في آخر ليلة لـ«ماهر» يقضيها كما أمر «محي».. ذهب كعادته إلى مبيته، ونام بعد أن أنهكه التعب والفكر.. دخلت سيارة «فاروق» أمام السرايا،

وهبط منها هو وزوجته، ولم يلفت نظره النائم تحت الشجرة، بل لم يدر «ماهر» به، وأن عرف.. فلن يفرح كثيرًا.. فقد قضى ما عليه.

اخبره «عرفان» بالنائم بعد أن أعطاه العشرة جنيهات، فقد وجدها منذ يومها تحت أحد الكراسي، وخاف أن يخبر «محي» بها؛ حتى لا ينكل به مثل «ماهر».. أقبل «فاروق» على «ماهر» وأيقظه؛ فوجده شبحًا وليس صبيًا.. جسم كاد ينكسر من طوله؛ وعيون ذابلة زادها التعب والخوف انكسارًا، وملابس مهلهلة، فزاد «فاروق» من ثورته وحسرته على الصبي، وسأل عن «محي»، فأخبره «عرفان» أنه عند «مدحت رضوان».

حاولت «سعاد» أن تدافع عن أخيها، لكنها لم تقدر؛ فهي تعرف عن «فارق» عدله وحبه للفقراء، فصمتت وصعدت إلى مضجعها.. وأمر «عرفان» أن يحضر له الطعام، فرفض «ماهر» وظل ساهمًا كسير القلب، ولم يقدر «فاروق» أن يراه على هذه الحال، فصرفه إلى بيته.

دخل «محي» إلى السرايا راكبًا «الكريتة»، لم يجد الجثة المكومة فنادى، على «عرفان»، ولكن قابله «فاروق» ولم يمهله كثيرًا، وصفعه على وجهه ووبخه، وطرده بعد أن أعطاه العشرة جنيهات، وأخبره بما حدث، فترك «محي» العزبة على فوره، وذهب إلى القاهرة.

ظل «ماهر» يتخفى في جنح الظلام بعيدًا عن أعين الناس.. حتى دخل إلى بيته، لتصرخ «أم الخير» فرحًا بقدومه، ولكن لم يقو أن يقف على قدميه، فسقط بين يديها صريعًا، فصرخت «أم الخير»، ليتجمع الكفر كله في بيت «أبو طاحون».

لم يغادر «ماهر» فراشه، وزاد عليه المرض، فعاده «حسين هجرس» و«عادل رضوان» لعلهما يخرجاه من مرضه، لم يفتح شفتاه حتى بابتسامة، فعرفا مدى عمق جرحه وخرجوا من عنده.

زاره كل أهل الكفر.. وزاره «فاروق» حتى يخرجه من مرضه، لم يكن مرض «ماهر» مرضًا جسديًا، فقد شفي الجسد واندملت جروحه، ولكن مرض «ماهر» مرضًا في القلب، فخارت قوى الجسد وسقط صريع الفراش.

كتم «فاروق» أمر العشرة جنيهات.. وأمر الخادم أن يكتم أمرها.. أما «ماهر» بعد أن أفاق، وجد قلبه ما زال ينبض بحب «أمل»، فعرف أن حربه مع قلبه قد خسرها كثيرًا في الأيام الخوالي فسكت، لم يغادر فراشة إلا عندما سمع صوت «أمل» في الخارج.. جاءت لتعوده، فتماسك ووقف مستندًا على الباب، ونظر إليها مسكورًا وقال لها:

- «أمل»... أنا مخدتش حاجة.. صدقيني.

لم تنطق.. ولكن نطقت دموعها، ورفعت يدها لتمسح دموعه.. لكن خجلها منعها، فهربت من أمامه، فعاد كسيرًا إلى فراشه لينام.. ليتها مسحت دموعه!!

هل صدقته؟.. هل عرفت أنه لم يسرق؟!.. وإن كانت عرفت فلماذا بكت وهربت؟!.. هل كانت تبكي على ما رأت؟!.. أم كانت تبكي حسرة على ما فعل؟!

عاد «ماهر» إلى عافيته، ولكن قلبه ظل كسيرًا، وأرسل له «فاروق»، فتردد «ماهر» في الذهاب إليه، فقد كان يعاهد نفسه كل ليلة يقضيها

بجانب جزع الشجرة أنه إن خرج من هذا المكان حيًّا، لن يعود إليه مرة أخرى.

ولكنه فوجئ أن «فاروق» قد جاء إليه بنفسه فذهب معه، وعلم «ماهر» ما فعله «فـاروق» مع «محي»، فهدأت نفسه، وعرض عليه «فاروق» أن يتولى مسئولية (العزبة الكبيرة) في كل شيء.. ليبدأ فصلاً جديدًا من حياة الصبي.

obeikandl.com

٤

بعد أن استقر بـ«ماهر» المقام في (العزبة الكبيرة)، وأصبح مسئولاً عنها، لكن تغير حاله، لم تندمل جروحه بعد، قد كانت غائرة، بل لم يتكلم مع أحد فيها، حتى مع «حسين هجرس» أو«عادل رضوان» صديقيه، حتى يخرجها إلى الهواء النقي فقد تشفي.. بل ظلت حبيسة نفسه فزادت جراحه عمقًا.. السياط التي هوت على جسده النحيل قد غيرته، جعلته يبحث عن شيء واحد، وهو أن يملك وأن يقوى، حتى يسقى من أذاقوه الهوان والعذاب من نفس الكأس.. فقد كره الفقر مثلما كره «محي» و«مدحت رضوان»، بل «رضوان» نفسه، رغم أن «عادل رضوان» قال له: أن أبيه قد وبخ «مدحت» فضحك وقتها بسخرية وهز رأسه وقال:

- وبخه.. يا سلام!!

وصمت بعدها ولم يتكلم مع أحد.. رغم أن صداقته بـ«عادل رضوان» ظلت كما هي.. أما حبه لـ «أمل» زاد، بعد أن اعتادت أن تأتي إلى بيته كثيرًا، وأظهرت مكمون قلبها فعرف ما فيه.

عمل «ماهر» خولي أنفار، وأثبت للجميع أنه قادر على ذلك، حتى لفت إليه الأنظار، فقد تولى كل شيء، ولم ينزل «محي» العزبة إلا قليلاً، وإن نزل لا يكلم «ماهر» ولا يتعرض له.

كان «ماهر» يحيط بكل شبر في (العزبة الكبيرة).. يعرف كل شجرة وله معها ذكريات.. وأكثر الأشجار التي له معها ذكريات هي شجرة

«الجميز» العتيقة.. كم صعدها «ماهر» وتسلق أغصانها وهو صغير!! عندما كبر ربط فيها، ونام في أحضانها، ولكن عندما عاد مرة أخرى إلى (العزبة الكبيرة).. تصور انه يملك شجرة الجميز و(العزبة الكبيرة) والسرايا.. كم حلم وضحك على حلمه... طارده حلمه كثيرًا وخاف منه، بل هرب مرات ومرات.. كبر معه حلمه، وظل بين ضلوعه ولم يطلع عليه أحد.. هناك فرق شاسع بين الحلم والحقيقة.

مرت الأيام وتولى «ماهر» حسابات العزبة، وترك عمل «خولي أنفار»؛ حتى يتفرغ للدراسة.. فقد بدأ العام الدراسي وعليه أن يتفوق ليحقق حلمه.. وجلس يوماً في طرف الجزيرة، ودارت به الأيام.. فوجد نفسه يقترب من تحقيق حلمه.. صك رأسه بكلتا يديه وصرخ في نفسه.. كف عن هذا أيها المجنون.. لكن تخيل وحلم ومليء عقله وقلبه بالحلم.. حتى آمن بالفكرة ..ثم انعكس ذلك على سلوكه.. أصبح يدافع عن كل شيء في العزبة.. حتى أنه كان يعطي تعليمات للفلاحين بحزم صاحب الملك وسيده ..لا تهوين ولا تقصير.. حتى أحس صاحب الملك أنه صادق، فأحبه وقربه منه، وجعله سيد كل شيء يأمر وينهي.. فبدأ يبدع.. فهو خبير بهذه الحرفة.. عاشها طفلاً وعرف كل شبر في العزبة.

بدأ «ماهر» يبدع أكثر في الحصول على «الشغيلة» من البلاد المجاورة ومن الكفر.. كان يعرف ما يريده فقراء الفلاحين.. «قرش زيادة».. فالفلاح يبيع صحته مقابل هذا القرش.. فيبحث عنه.. فزادهم «ماهر» أكثر مما يأخذوه من الحاج «رضوان» والحاج «مصطفى».. انتعش كل شيء في العزبة.. زغردت العصافير على الأشجار.

obeikandi.com

وأصبح يذهب إلى قهوة برغوت، ليجلس فيها ومعه «عادل رضوان» و«حسين هجرس».. تأثرت أرض «رضوان» كثيرًا، فذهب إليه «مدحت رضوان» في القهوة، وأمام أهل الكفر رفع يده ليضربه، ولكن «ماهر» هذه المرة أمسك يده وتحداه، حتى خاف «مدحت» من عينيه التي ينطلق منها الشرر، فعرف «مدحت» أن «ماهر» لم ينس له ابتسامته يوم أن علق في شجرة «الجميز»، وأنهما يومًا لابد أن يتقابلا.

تذكر «ماهر» الأيام التي كان يعمل فيها أجيرًا، وحفرت في ذاكرته، فكان عندما يعود إلى بيته.. لم يجد ما يسره من طعام ..رغم ذلك كان يوفر لقمته في البيت؛ ليقتات عليها غيره ..ويذهب إلى حسين هجرس؛ ليأكل من «قرص» الصدقة – التي كان يأتي بها من المقابر ..حتى عرف قرص الأغنياء من الفقراء.. يذهب هو و«حسين» بعد عصر كل خميس إلى طرف الجزيرة، بعد أن يحضر «حسين» القرص والفول السوداني في كيس من القماش ليلتهموه ..ثم يغيبوا في حديث طويل عن النساء وبنات الكفر وأسرار الناس.. كأنهم سكروا مما أكلوا.. حديث أغلبه كذب وقليله صدق.. المهم الكلام.

فكرة واحدة يتكلمون فيها إذا انضم إليهم «عادل رضوان» بعد عشاء يوم الخميس – فعشاء الأغنياء يوم الخميس في الكفر مقدس – الكل يجتمع حوله.. فيه ما لذ وطاب.. لحم وبط وأوز.. أما الفقراء «ماهر» و«حسين» يذهبان إلى الجزيرة بكيس الصدقة.. وعندما يأتي إليهم «عادل» يضحكون ويشتمونه.. ثم يخوضون في الحديث.. كلام تافه.. والصداقة قد تقوى بالحديث التافه.. عندما يحس كل صديق أن

obeikandi.com

صديقه قد تحمل حديثه الممل بما فيه الكفاية ..كأن الملل قد يكون صك للصداقة.

أم هذه الأيام أصبح يقابله «برغوت» كل من في القهوة يقفون له، «ماهر» لم يشغل نفسه بكل هذه المظاهر الخادعة؛ بل شغل نفسه بشيء واحد وهو أن يتفوق في الثانوية؛ ليحصل فيها على مجموع؛ ليدخل (كلية الهندسة)، فطغى حلمه في الدراسة على أحلامه التي كانت تطارده.. بل كان يبيت أحيانًا في (العزبة الكبيرة)؛ ليذاكر حتى الصباح.. حتى انتهى من الدراسة ودخل الامتحان، ولكن هذه المرة كان كل يوم يمر عليه يزداد رعبًا، ويخاف ألا يحقق حلمه، فقد عرف أن التعليم هو الذي يخرجه مما فيه، فآمن به ووضع كل مجهوده فيه.. مرت الأيام طويلة عليه ينتظر فيها النتيجة..!

٥

صعد «علي بن ذكية» يتسلق شجرة «الصفصاف» العتيقة على جسر الترعة عصرًا ...ظل يتسلق حتى وصل إلى أعلى أغصانها..هو خير مَنْ يقوم بهذه المهمة الجلل..جسمه نحيف..نظره حاد. قلبه حديد.. يطلق عليه «عفريت الكفر».

اتفق «علي» على أجر مهمته «عشرة قروش».. يقبضها ويجلس على قهوة «برغوت» ويصرفها مثلما يفعل الكبار.

أما الثلاثة.. «ماهر أبو طاحون» و«عـادل رضـوان» و«حسين هجرس».. مرة يجلسون على حافة المصلى أسفل «الصفصافة».. ومرة الواحد منهم ينام على القش الذي يغطي فضاء المصلى.. ومرة يصلي ركعتين بنية قضاء الحاجة.

القلوب الثلاثة كادت تنخلع من الانتظار منذ الصباح، عندما سمعوا من جهاز الراديو إعلان نتيجة الثانوية العامة.. الكل قد نجح.. ولكن القلق على قدر الأمل.. وكان أكثرهم قلقًا هو«ماهر».. منذ نعومة أظفاره يكون ترتيبه الأول.. فكاد يفقد وعيه هذا اليوم.. وضرب أخماسًا في أسداس ..حتى خيل إليه أنه لن يحصل على ما يريد، ووطد نفسه على ذلك.. ولكن الأمل ظل ينهش صدره حتى ألقى بنفسه في الترعة؛ ليطفئ لهيب صدره.. وغطس وغاب تحت الماء، حتى لفت انتباه «عادل» و«حسين».. وشكوا أنه انتحر وتخلص من عذابه.

obeikandl.com

أما «عادل» فلم يكن يهمه أمر المجموع كثيرًا.. فهو لا يعول على الثانوية.. ما يريده هو مجموع يدخله أي كلية بـ (الزقازيق)، وبعدها يرعى أرض والده.. فهو ابن العمدة.. والده يملك من الأطيان الكثير.

الوضع يختلف مع «حسين هجرس».. والده الشيخ «هجرس»- «شيخ الجامع».. كفيف.. فقير؛ ولكن فقره أقل من «أبو طاحون» والد «ماهر».. فيكفيه هو وأولاده ما يحصل عليه من «قرص»، يقرأ به آيات القرآن على الموتى عصر كل خميس.. ونفس الوضع ما يحصل عليه أجر خطبة الجمعة كل أسبوع في مسجد الكفر.. ويزيد عليهم ما يأخذه من قراءة القرآن في المآتم.. ولكن أمل «حسين هجرس» لا يزيد على مجموع يدخله معهد ينهى به حياته الدراسية بشكل مقبول.

أما «ماهر أبو طاحون» فقد كان أكثر قلقًا.. أمله أن يدخل «كلية الهندسة» بـ (الزقازيق)؛ ليغير بها خريطة حياته.. منذ أن علم أن التعليم هو الباب الوحيد أمامه ليميزه على بقية أقرانه.. سعى إليه بجد.

والده «أبو طاحون» أعمش- لا يرى بالليل.. قصير القامة.. رث الثياب.. لا يتكلم كثيرًا.. سمين يحشر نفسه في جلباب لا يملك غيره.. لا يميزه إلا صوته الجهوري وهو ينادي على البطاطا :« عسل يا بطاطا» في الكفر والبلاد المجاورة له.. لا يملك «أبو طاحون» إلا بيت تهبط له من حارة عدة سلالم لتدخله.. كأنك تدخل قبرًا أو جحر ذئب.. وحمارة سوداء يضع عليها «خرج» ممزق يحمل فيه البطاطا.. ولكن عنده من الأولاد خمسة.. الفقر يطفح من كل مكان ..حتى ترك على وجهه علامات، لا يمحوها إلا الموت ودود القبر.

«ماهر» عرف حقيقة نفسه ودرس وضعه جيدًا.. وانطلق فكان يحصل على المركز الأول في الشهادة الابتدائية - لا على مستوى مدرسة الكفر.. بل على مستوى (محافظة الشرقية).. كرمه المحافظ.. أحس بفقره.. اعتصره وهضمه حتى كاد لا يتذكر أنه شبع من طعام قط.. فترك هذا على جسده الأثر البالغ.. الجسم نحيف.. يوجد انحناءة أعلى جسده.. الرأس رغم توسطها مالت للأمام ..كأن الفقر كسر ظهره ..ولكنه ترك فيه الإصرار والعزيمة والصبر على كل شيء.. فتفوق في الشهادة الإعدادية.

لم ينم «ماهر» منذ ثلاثة أيام.. وكم حلم وكم انزعج،وكثيرًا قام يصرخ من نومه.. انقلبت حياته إلى «كابوس» طويل.. لم يأكل إلا القليل ليسد به رمقه.. حلم أن الطريق الوحيد الذي فيه خلاص عذابه قد انسد.. وأنه لن يحصل على مجموع يوصله لهدفه.. فصرخ وقام يجري نائمًا حتى التصق وجهه بالباب ..وجرح.. ومن لحظتها لم تغمض عيناه.. فألم اليقظة خير من كابوس يكاد يقتله.

أما «على بن زكية» مرة يغني بصوته الرفيع فيزعجهم.. فيقذفوه بالطوب فيصمت.. ومرة يدندن ليسلي نفسه، ما يهمه هو أجره فقط.. ينجح مَنْ ينجح.. ويرسب مَنْ يرسب.. المهم أنه ضمن «عشرة قروش» مرة واحدة.. والثلاثة يجلسون كأنهم ينتظرون الموت.

الذي يزيد الأمر سوءًا ..أنهم تتطاير إلى أسماعهم أصوات «الزغاريد» من البلاد المجاورة.. إلى أن صرخ «علي»!

الصرخة خلعت القلوب، وكاد «ماهر» يغيب عن وعيه.. تماسك ووقف على قدميه مرة أخرى.. «علي» أخبرهم أنه رأى «موتوسيكل»

«سيد الأقرع».. فراش المدرسة الثانوية.. يدخل الجزيرة من الجهة المقابلة قادمًا للكفر.. جرى الثلاثة بسرعة لانتظار «سيد» على قارعة الطريق.. قدم ولم ينظر إليهم.. ومر مسرعًا. وهم خلفه إلى بيت الحاج رضوان عمدة الكفر.

صرخة «علي» كأنها وصلت إلى أسماع كل أهل الكفر، فتجمعوا أمام دوار العمدة رضوان.. فشق «سيد» طريقه إلى الدوار بشق الأنفس، وأيضا «ماهر»، ومن بعده «عادل رضوان»، وخلفهم «حسين هجرس».. وصل الجميع إلى حيث يجلس العمدة.. في المعتاد أن« سيد» يحصل من العمدة على مبلغ في صورة «بشرى» نظير حمله خبر النجاح.. وأعلن«سيد» أن «ماهر أبو طاحون عز الدين محمد» حصل على المركز الأول على مستوى (محافظة الشرقية)، ورفع رأس الجميع، وسوف يكرم من القيادات العليا.. و«عادل رضوان» حصل على ما أراد وكذلك«حسين هجرس».. صرخ «ماهر» صرخة نصر دوت المكان.. ولم تحمله قدماه فسقط على الأرض، وأسند ظهره إلى الحائط ..وغاب عن الوعي.. سهر وسهاد الأيام الخوالي، قد جنى محصوله في تلك اللحظة، فخارت قواه وسقط.

حضر الجميع في الكفر صغيرًا وكبيرًا ..إلا واحدًا ليس من عادته أن يحضر هذه المناسبات، حتى إن كان ابنه هو«ماهر عز الدين» نفسه الذي رفع رأس الجميع.. وهو«أبو طاحون» الذي لا يشغله في الحياة إلا أن يوفر لـ«ماهر» وإخوته قوت يومهم.

دخل «أبو طاحون» الكفر راكبًا حمارته.. لا يلوي على شيء.. الكل يهنئه وهو لا يهتم.. يومئ برأسه لهم ..وجد البيت يغص بالحضور.. نزل

وربط الحمارة وأنزل ما عليها ودخل.. أحضر للحمارة تأكل، وتوضأ ليلحق بصلاة المغرب، ولم يشغل نفسه بما يدور.. ثم دخل حجرته ونام.. فهو لا يذهب إلى المسجد لقصر نظره.. فهو يصلي العشاء في فراشه وينام.. فمنذ أن تزوج «أم الخير» وهذه عادته لم يغيرها.

امتلأ البيت عن آخره بالناس كبارًا وصغارًا رجالاً ونساءً، يهنئون «أم الخير» على نجاح «ماهر».. فهي لم تتأخر عن تهنئة أصحاب الأفراح في أفراحهم ومواساة أصحاب المصائب في مصابهم.. فهي لم تتأخر عن واجب قط..الكل لم يشغله وجود «أبو طاحون» أم لا.. بل لم يسأل عنه الرجال ليهنئوه.. الكل يعرفه ..هذه هي طباعه.

مضت الليلة.. وانفرطت من حياة «ماهر» أيام من الكد والفقر والألم والجوع.. كان مصرًا على النجاح والتفوق ونجح وتفوق.. بل حصل على ما يرفع به رأسه.. رفع رأسه فعلاً أمام الجميع.. الغني منهم والفقير.. ولكن لم يفلح الحدث أن يسوى ما تركه الزمن من انحناءه ظهره..فظل كما هو.

٦

أشرق فجر جديد في حياة الصبي.. دخل (كلية الهندسة).. لقد حقق حلمه الذي حلم به.. ومازال يباشر أعمال (العزبة الكبيرة) التي تُدر عليه مالاً غَير من حاله.. عرف أن كلمة السر بين الغني والفقر هو المال.. عندما زاد دخله تغير كل شيء في حياته.. أصبح أكثر احترامًا من قبل أهل (باكوش) عن ذي قبل.. ولم يبخل عليه «الشربيني».. فقد كان يعطيه أحيانًا بلا حساب.. كان يفعلها «الشربيني» عندما يحس بعقدة الذنب -التي أوقعه فيها «محي» ابن عمه.

حبه «لأمل» قد لاحظه الناس في الكفر.. عرفوا أن هناك شيئًا ما يجمع القلبين.. هي قللت من ذهابها إلى أخته.. ولكن هو تجرأ أكثر في ذهابه إلى بيتها؛ بحجة استشارة أبيها في أمور الزراعة.. رحب به «مصطفى» ورفضته «اعتدال» والدة «أمل»، لم تسترح لهذا الحب، وكثيرًا ما تدخلت في ذهاب ابنتها إلى بيته، ولم تسترح إلى مبرراتها.. لقد عرفت ما يكنه قلب ابنتها نحو«ماهر»، وعرفت أنه خطف قلبها بحبه، فخافت على ابنتها من حب يذيب الفوارق بينها وبين ابن «أبو طاحون».. فكانت تضع أمامها دائما الفارق بينها وبينه، فهو سوف يظل ابن بائع البطاطا حتى لو دخل (كلية الهندسة)، وأصبح مهندسًا، فهي عند أمها البنت الوحيدة- التي خرجت بها من الدنيا وتخاف عليها.. فهي تتمني لها «مدحت رضوان» أو«عادل» أخيه؛ فهما أثرياء وأبناء عمدة، أما «ماهر» الكل يعرف أصله وفصله.

رفض «اعتدال» لحب «أمل»، أدخل هذا الحب في مأزق، أدخلها في ألم قلبي، فهي كانت تريد أن تغرد بهذا الحب وتصدح به لا تؤمن بكل ما تؤمن به أمها.. فهي تؤمن بالحب- الذي يذيب الفوارق، أما أمها فتؤمن بالواقع.. أما «مصطفى» وقف على الحياد بين الأم وابنتها مرة، ومرات يتدخل ليهديء من شكوك الأم، ولكنه يرحب بـ«ماهر» إذا حضر.. ما دام هذا يلقى ترحيب عند ابنته.

***

نظم «ماهر» وقته فكان يذهب إلى (الزقازيق)؛ ليحضر محاضراته، ويجلس أيامًا في شقة أستأجرها قريبًا من الجامعة.. إذا عاد.. وأصبح يدافع عن كل شيء في العزبة، بل كان يصل به الحد إلى تغير قرارات «فاروق» نفسه.. والغريب أن «فاروق» كان يلقى ذلك هوى في نفسه، ويوافق على رأيه؛ لأنه يجد فيه مصلحة العزبة.. فقد سر «فاروق» ما رأى من محصول وفير تدره الأرض.. فقد كانت في الماضي عبئًا ،أما في عهد «ماهر» أصبحت مشروعًا اقتصاديًا له أسسه.

عاد «ماهر» يومًا متأخرًا من (الزقازيق).. دخل حجرته ووضع ما في يده، ولكنه سمع أصوات ضحكات عالية تصدر من داخل السرايا، فاقترب فإذا بها للعمدة «رضوان» والحاج «مصطفى» والشيخ «هجرس»، فاستغرب من حضورهم.. صعد سلم السرايا، ودخل بحجة مقابلة «الشربيني»، عندما رآهم رسم على وجهه علامات المفاجأة.. إذ بهم يقومون مودعين «الشربيني»، ويربت «مصطفى» على كتف «ماهر» ثم يقول:

- أظن يا دكتور مش هنلاقي واحد يؤثر عليك في طلبنا، أكتر من ابننا «ماهر».

هزت الكلمات أفكار «ماهر» بعنف، بينما ظل واقفًا، حتى عاد «الشربيني»، فأمسك كتف «ماهر» وأجلسه؛ ليخبره بخبر قدوم أهل الكفر إليه!

***

(العزبة الكبيرة) تقع بمحاذاة جسر الترعة - التي يمر عليها طريق رئيسي يربطها بـ(الزقازيق)، أما كفر (باكوش) يقع بعيدًا عن الترعة، فيفصل بينه وبينها أرض (العزبة الكبيرة) والجزيرة، ذهب العمدة «رضوان» و«مصطفى» والشيخ «هجرس» «للشربيني»؛ ليوافق على إنشاء طريق للكفر وسط أرض (العزبة الكبيرة) ،حتى يصل الكفر بجسر الترعة.. وعلم أهل الكفر أن «الشربيني» رجل يساعدهم في كل خير، ولكن يعلم الجميع أن الطريق سوف يشق أرض (العزبة الكبيرة) إلى نصفين، وهذا قد يرفضه «الشربيني» وزوجته.

عرض «الشربيني» أمر الطريق على «ماهر»، ولكنه وجد أن «ماهر» يعارض مرور الطريق بشدة.. فاستغرب!

ضغط أهل (باكوش) على «الشربيني» فوافق، وأصبح طريق كفر(باكوش) يمر من أمام السرايا، ولم يدخل «الشربيني» مع «ماهر» في تفاصيل رفضه إلا أن «ماهر» قبل الطريق - دون أن ينبث بكلمة، ومرت أيام «ماهر» في العزبة ولم يعرف أحد برفض «ماهر» للطريق، وأصبح

الطريق يمر من الترعة مخترقًا أرض العزبة؛ ليمر في حافة الجزيرة؛ ليصل إلى بيت الحاج «مصطفى» ثم بيت العمدة «رضوان»؛ ليهبط إلى البيوت الواطئة – وهي بيوت أهل كفر (باكوش).

بعد الطريق انقلب حال أهل (باكوش)، وسعدوا بالطريق، وأصبحت السرايا على بعد خطوات منهم عند مرورهم في طريق الكفر، وجمع العمدة والحاج «مصطفى» أهل الكفر أمام الدوار، وحذرهم عند مرورهم من أمام السرايا إذا مر الرجل منهم راكبًا حماره لابد أن ينزل أمام السرايا احترامًا «للشربيني»، ونفذ أهل الكفر ما قيل لهم، وأصبح «الشربيني» رجلاً يحبه كل قلب في الكفر ويحترمه.

obeikandl.com

٧

وفي يوم من أيام هذه البقعة - التي تقع على أرض مصر (بمحافظة الشرقية).. هبطت إلى الكفر سيارة سوداء لا يُري من بداخلها، نظر إليها الفلاحون فلم يتبينوا، أمرها ولذا أصبحت لذلك حديث يوم عملهم.. ورغم ذلك لم يعرفوا لِمَنْ هي؟! ومن يركبها؟!

ولكن عرفوا من قهوة «برغوت»، فكل من يريد أن يعرف أي أمر في الكفر أو في البلاد المجاورة، يجلس في مكانين في كفر(باكوش).. إما في قهوة «برغوت»، أو في المكان الذي يجلس فيه «سلامة» حلاق كفر (باكوش).. وعرفوا من القادم!

أحيانًا تسمع عن شخص وتعرفه جيدًا من سماعك عنه، وأن لم تكن قد رأيته من قبل، وهذا ما حدث في أمر القادم، اللواء «حامد» من عائلة «رضوان»، وله أرض تقدر حوالي عشرين فدانًا، وبيت في أحد أطرافها، وكان كل أهل (باكوش) يعرفونَ من هو حامد؟

فيقول أحدهما للآخر: هو الذي أخذ أرض العمدة منه؛ ومن أبيه.

فيرد الآخر: لا.. هناك أكثر، أخذ منه خطيبته وتزوجها، ولم يقدر العمدة القديم« والد رضوان» ولا« رضوان» وقتها أن يتكلموا.

- فيقول: وهل ما زالت الأرض مع «حامد»؟

- فيرد عليه: إنت مش عايش في كفر (باكوش)، نعم مازالت، وهي بجوار أرض «رضوان».

ولم ينتهي الحوار عند هذا الحد، بل قد يمتد ليطول الأعراض.. عرض «رضوان» وعرض كل عائلته، حسب خيال ومزاج مَنْ يحكي، وهذا هو حال الكفر. ولكن من «حامد» هذا؟

اللواء «حامد» يعيش في فيلته (بالزقازيق)- بعد أن أحيل على المعاش، وأنجب من «إنصاف» ابنه «سمير» فقط، الذي أصبح ضابطًا في الشرطة، ولم يهبط الكفر منذ أن تزوج «إنصاف».. ولم يحاول رضوان أن يطالب بأي حق من حقوقه، لم يعرف الناس لماذا؟!، وهو المشاكس في أخذ الحقوق والعنيف في كل شيء، لماذا لم يذهب لرجل مازال يدب بقدميه على الأرض؟! وما زال يأخذ حقه! بل ما زال كل شيء شاهد للعيان يحكي كل يوم القصة!، بل وتُخرج الحقيقة لسانها الطويل لرضوان.

بعدها تزوج «رضوان» من زوجته التي أنجبت له «مدحت» الذي أصبح معيدًا بزراعة (الزقازيق)، و«سلمى» التي تخرجت من (كلية التجارة)، وتعمل في أحد البنوك في المركز القريب، وآخرهم «عادل» الذي ما زال في (كلية التجارة)، وماتت زوجته، لم يفكر وقتها «رضوان» أن يتزوج، رغم وفاة زوجته في سن يسمح له بالزواج، كأن زوجته أعطته ما يريده من الدنيا، وهي نعمة الأولاد ثم ذهبت لحالها، لكي تتركه يعيش في ذكراه مع «إنصاف» وما حدث له.

الذي شغل الناس في كفر (باكوش) لماذا هبط «حامد» في سيارته السوداء إلى الكفر؟ هل هناك ما يأخذه من «رضوان» ليصبح عبرة مرة أخرى للناس؛ وخاصة الذين جار على حقوقهم، فدائمًا السلطة مكروهة.. لأنها سيف مُسلط على الرقاب غالبًا.. وعندما يُنصب أحد نفسه ليأخذ

من هذا ويعطي هذا غالبًا ما تُغريه مكانته، ويظلم باسم الحق والعدل، ويكون له مأربًا من كل شخص، ويقيس الناس على حسب مصلحته وليس مصلحة العامة، فدعا مظاليم كفر (باكوش) على عمدتهم بأن يذيقه «حامد» من نفس ما أذاقهم هذا العمدة.. فكل قوي يوجد من هو أقوى منه وأعتى، وهذه هي لغة القوة في كل زمان ومكان، فلا قوي جبار على الأرض إلا وله مَنْ هو أقوى منه، حتى يكون القوي الجبار سبحانه هو الحكم العدل، وإن انتهى ولم يوجد في زمانه من هو أقوى منه.. سلط الجبار عليه أضعف جنوده، ليخسف به الأرض وتذيقه الهوان؛ حتى يعلو الحق على الباطل، فإذا كان للباطل جولة فللحق، جولات جبارة، تستمد قوتها من العلي القدير.

شغل الناس أنفسهم «بحامد» الذين سمعوا عنه ولم يروه من قبل، وجاء «حامد»، ولكن بأمر لا يثلج صدور وحنق المظاليم، ولكن لكي يعطي «رضوان» حقه، استغرب الناس ومنهم مَنْ صرخ بأعلى صوته: «العشرة فدادين سوف تعود إلى» رضوان« من باكر»، والأكثر أنه سوف يأخذ ريعها الذي سجلته «إنصاف» منذ أن أخذها «حامد» من «رضوان» حتى اليوم! أمر لا يصدق.. ولكن الذي حدث هو أن «حامد» جاء ليعطي رضوان أرضه، والذي شغل الناس لماذا هذا التغير المفاجيء؟!، فالأمر مخالف للعادة، الفقير يضيع حقه عند «رضوان» نفسه ولا يأخذه، وهو أبسط بكثير من أرض «رضوان» التي سوف تعود إليه، فقد تبرأ رضوان من كل ما لزمه الأيام الخوالي، من ضعف قاله الناس من خوفهم سرًا عندما كان يقسو عليهم، فاليوم أعطي الحق لصاحبه جهارًا نهارًا.. ولكن ماذا حدث؟

وقفت السيارة السوداء أمام بيت «رضوان»، وهبطت منها «إنصاف» فوجدت «رضوان» يجلس مع الشيخ «هجرس» كعادته في الدوار، ولم يعرفها في البداية، ولكنه عرفها فأخذته وتركت «هجرس» الذي سحبه أحد الخفراء إلى بيت «حامد» وهو يجري.. يتكفف الحفر في الطريق على عجل، وصلت السيارة إلى بيت «حامد» وهبط «رضوان» والسائق؛ ليحملوا حامد وهو جثة لا يفصلها عن دخول القبر غير أنفاس.. وصدر يهبط وينخفض؛ ليقول للحاضرين أن القبر موعده لم يحن بعد، وصوت خفيض محشرج، يبذل فيه صاحبه العناء الكبير حتى يسمعه من بجانبه. طرحوه على أقرب سرير، وقد مر هجرس في طريقه على «مصطفى» وأخذه معه لعل هناك أمرًا خطيرًا لابد من حضورهم، رغم أن «إنصاف» لم تدع «هجرس» ولا «مصطفى» للحضور، ولكن هذه هي عادة «هجرس» يعتبر نفسه شيخ الجامع في الكفر، ومسئول عن كل شيء حتى ولو لم يدع إليه، حتى أن «مصطفى» دخل مع «هجرس» دون أن يعرف لماذا ركب رضوان السيارة؟! ومع من؟!.. دخل «مصطفى» يجذب «هجرس» من جلبابه، و«هجرس» يجفف عرقه، بطرف جلبابه؛ ليقابلهم «رضوان» و«إنصاف» في صحن البيت، وينادي الصوت المحشرج على الجميع أن يحضروا إليه حيث ينام، دخلوا.. ليشد حامد رأس «رضوان» ويقبلها، ويطلب الصفح والعفو منه وسط دموع وأنين «إنصاف» فيقبله «رضوان» ويَحمرْ وجهه خجلاً ويعفو عن حقه، فيشير «حامد» إلى «إنصاف» والسائق فيعطوه حقيبة سوداء، ويخرج منها مبلغًا من المال وعقد تنازل عن الأرض، ليعطيه «لرضوان» الذي لم يتمالك نفسه أمام الحضور، وجلس هجرس يتمتم بآيات من الذكر الحكيم من

سورة (يس) لقد أحس أنْ الصوت المُحشرج لا يبقي له إلا سويعات في الدنيا.. ويُمصمص شفتيه ليسمعها الجميع.

وفي فجر اليوم التالي صحي الكفر على خبر وفاة اللواء «حامد»؛ ليحضر ابنه - الذي لم يهبط الكفر منذ أن جاء إلى الدنيا، والذي حضر على عجل، ومعه عدد من كبار ضباط الشرطة ورجال الدولة؛ ليودعوا «حامد»... وأقام «رضوان» كل مراسم العزاء أمام بيته، وحضر كل أهل الكفر، حتى الفقراء منهم، وأمرهم «رضوان» أن يسوا شوارع الكفر رطرقها ويجملوا كل مكان، فقد يحضر أي شخصية هامة قد تصل إلى السيد المحافظ، مما جعل كل رجل في الكفر يعتبر أن العزاء هو عزاءه، وعليه أن يقف ليقابل المعزين، ويكون شاهد على موقف لن يتكرر حتى يتحاكى به، حتى لو مات العمدة «رضوان»، نفسه فلن يحضر هذا العدد اللفيف من رجال الدولة والشرطة لكفر (باكوش).. لبس الفقراء ملابسهم التي لا يلبسونها إلا في الشدائد أو السفر خارج الكفر لأمر هام، وجلسوا يقفون بعيدًا يرقبون الداخل والخارج، ولا يدخلون العزاء وكأن على رؤوسهم الطير، لا يوجد وقت ولا مكان للحكي، الأحداث العظام تتوالى أمامهم، والكل يسجل ولا يتكلم، حتى انتهت الليلة وذهب الجميع إلى بيته دون أن يقول كلمة، لقد أتعبه وهده ما رأى وعليه أن يستريح؛ ليؤرخ الكل لهذا الحدث - الذي لم يستمر إلا ثلاثة أيام منذ هبوط «حامد» الكفر حتى دخوله القبر، بل لأول مرة يروا أن واحدًا في الكفر يلف بعلم مصر، فهذا جعل الكل يحس أن الأمر جلل، ويوم عظيم على الكفر ومن فيه قد حدث.

٨

دخل «رضوان» على «إنصاف».. وجد الدموع تملأ العينين التي كم أحبها!!، ولكن لم يعلق.. ووجد «سمير» يدخل هو و«مدحت» من الخارج، فأخذ «سمير» وأجلسه ليسأله عن حاله، وعرف منه أنه ضابط شرطة (بالزقازيق)، وأن والده ترك له إرث من السمعة الطيبة والشرف، جعل قادته يجلوه ويحترموه، فترحم عليه «رضوان» بملء فيه ومن كل قلب صافٍ، وخرجت «سلمى» من إحدى حجرات بيت «حامد».. فمنذ أن مات «حامد»- وهي تجلس مع «إنصاف» ولا تفارقها؛ بل اعتبرتها والدتها، وأحست بطيبة لم تعهدها من قبل، وعرفت أن والدها قد أحب قلبًا طاهرًا ونفسًا زكية ولا يشغلها إلا التسبيح والصلاة وذكر الله الذي يعطر فاها كل لحظة، وجلسوا جميعًا، ولا يوجد مجالًا للحوار غير السؤال عن العمل، وعن الكفر، وعن فلان الذي مات، وفلان فعل كذا، وصمت الجميع لتسأل «إنصاف» ويجيب «رضوان»، فاخترق هذا الكلام الذي لا يشغل غير أُذن محدثيه، قام «سمير» وطلب من «مدحت» أن يعرفه على الكفر، فاصطحبه إلى قهوة «برغوت»- والتي تعتبر من معالم الكفر، فوجدها «سمير» شيئًا لا يحكي عنه، المهم أنه جلس، وحلف «برغوت» بكافة الأيمانات المعقودة أن كل شيء على حسابه لهم.

«سمير» عرف أن «إنصاف» لن تغادر الكفر، فلم يشغله إلا يراها كل أسبوع عندما يهبط إلى الكفر، ويمر على «مدحت» و«رضوان» و«عادل»، ثم يغادر الكفر ولا يبيت فيه، وانتقلت «سلمى» بكل حياتها إلى بيت

«حامد» لتجلس مع «إنصاف» ولا تذهب إلى بيت أبيها ،إلا على فترات متباعدة ولفترات وجيزة. تحدثت الألسنة التي لا تكف عن الكلام في الكفر، أن «سلمى» قد تتزوج من «سمير»، فأهل الكفر قد يزوجوا شخصًا، وقبل أن ينفضوا من مجلسهم يطلقوه، ولم يفتح أحد أمر الزواج مع «رضوان» حتى «إنصاف» لم تفكر فيه، ولكن الحديث في أمر «سلمى» قد جر معه الكلام عن «محي الشربيني» وعن الحب الذي يعرفه الجميع في الكفر إلا «رضوان»، فقد أحب «محي» «سلمى رضوان» حبًا شديدًا عرفه كل الناس، ورعاه «مدحت رضوان» نفسه - وهو صديق «محي»، ولكن لم يعرف «رضوان» أي أمر عن هذا الحب أو يشعر به، وخاصة بعد أن طرد «محي» من (العزبة الكبيرة)، وطرده «الدكتور الشربيني»، وعرف الكل وقتها أن «الشربيني» طرد «محي» جزاء لما فعله مع «ماهر»، عندما ضربه وعلقه في جزع شجرة «الجميز»، وكان« محي» يهبط إلى الكفر لليلة واحدة ويغادر بعدها إلى (القاهرة)، ويرى فيه «مدحت» و«سلمى»، ولم يجرؤ أحد أن يقول لـ«رضوان» أن «محي» يحب «سلمى» وهي تحبه، حتى شك الناس أن «رضوان» يعرف كل شيء عن هذا الحب، وعندما هبط «محي» إلى الكفر - بعد وفاة «حامد»، لم يقابل «سلمى» التي عاشت بشكل دائم عند «إنصاف»، ولم يقابل «مدحت» الذي قيل أنه لم يفارق «سمير» منذ وفاة «حامد»، فكان يذهب إليه في فيلا «حامد» (بالزقازيق)، ليبيت عنده ليلة أو ليلتين في الأسبوع، فعاد «محي» مرة أخرى إلى (القاهرة) كسير النفس، ولكنه طلب أن يذهب الدكتور «الشربيني» ومعه «سعاد» لطلب يد «سلمى» ليتزوجها، ولكن خبرة السنين جعلت «الشربيني» يمهل «محي» لوقت ما، لأنه يرى وكما يعرف الجميع من أهل الكفر أن «رضوان»

لو طُلب منه قبل قدوم «حامد» إلى الكفر يد «سلمى» لـ«محي» لرفض، لأن «محي» لم يكمل تعليمه، و«سلمى» قد تخرجت وعملت في بنك ،ولن يشفع له «الشربيني» و«سعاد» في هذا الزواج، فماذا يحدث لو طلب «محي» يد «سلمى» بعد ظهور «سمير» و«إنصاف»؟! علم «الشربيني» أن هذا الزواج ولد منذ زمن.. ولد ليموت ولكن لم يشأ أن يلقي بهذه الحقيقة في وجه «محي»، فأمهله حتى يقضي الله أمرًا كان مفعولا.

طلبت «إنصاف» يد «سلمى» فعلاً لـ«سمير»، وإن كانت فتحت موضوع الـزواج وهي معها، ولكن لم ترد عليها، وبدأت تتهرب من الكلام في هذا الموضوع، وانتظر «رضوان» عودة «مدحت» من (الزقازيق)، وجمعه مع أخيه «عادل»، وقال لهم ما طلبته «إنصاف» منه، فبُهت وجه «مدحت» واصفر، ولم يرد، ولكنه تحفظ على أمر هذا الزواج، واستغرب «رضوان» من موقفه، فهو الصديق لـ«سمير» بل كان يجالسه أيامًا في (الزقازيق)، فلماذا يتحفظ عليه؟!، وطلب «مدحت» من «رضوان» أن يتمهل في هذا الأمر، ولكن رضوان حسم أمره، وقرر أن يعرض أمر الزواج على «سلمى»، فعلاً عرض «رضوان» عليها ما عرضته أنصاف وأرادته.

٩

صمتت« سلمى» والدموع تملأ عينيها.

فأحس «رضوان» أن هناك شيئًا ما في قلبها.. تلمس أفكاره بل شحذها ولم يصل لشيء، لم يصل إلى ما يملأ هذه العيون دموعًا.. صمت أمام هذه الدموع وسكت، وسأل «مدحت» عن حال أخته ولم يقل له شيئًا، ولكنه شك في العلاقة بين «محي» و«مدحت» فلم يجد من يجرؤ ويقول له سر هذه الدموع، حتى صاحبتها التي ألح عليها.. صمتت - وهي كسيرة القلب، فصمت هو الآخر، وفضل الجهل عن معرفة أمر لو طُلب منه لرفضه، فهو لن يزوج ابنته إلى ولد (فاشل) - كما يطلق عليه في الكفر، و«رضوان» لا يوجد عنده ما يدفعه للموافقة على زواج «سلمى» من «محي»، فلا هو يريد الجاه لأنه عمدة ولا يريد الأرض والمال، لم يجد في محي ما يدفع «رضوان» إلى قبوله، واعتبر السكوت علامة الرضا.

تزوج «سمير» بعد شهور من موت «حامد»، وتم الزواج الذي تحاكى به أهل الكفر جميعًا، مثلما تحاكوا بعزاء «حامد» - الذي لم ينس أهل الكفر من ذاكرتهم ما حدث فيه، واصطحب «سمير» «سلمى» إلى فيلا «حامد» في (الزقازيق)، بعد انتهاء الفرح، وبعد شهور هبطت «سلمى» إلى الكفر، تشكو لـ «إنصاف» سوء أخلاق «سمير» التي تعرفها «إنصاف» جيدًا، وهدأت من غضبها، وقبل أن تغادر «سلمى» الكفر، عرفت «إنصاف» من «سلمى» خبرًا أثلج وملأ قلبها فرحة، وهو أن «سلمى» قد تنجب بعد شهور أول مولود لـ«سمير»، فدعت «إنصاف» الله وتضرعت له،

أن يهدي «سمير» إلى طريق الرشاد، وأن يكون المولود الجديد سببًا في عودته إلى الطريق الذي نهجه والده في خدمة الشرطة، وليقضي الله أمرًا كان مفعولا.

تم القبض على «سمير» مع مجموعة من تجار المخدرات، فقد كان يجمعهم عنده في الفيلا، وتابعه رجال الشرطة، وضبطوه وهو يسهل تسليم المخدرات بنفسه، فقبض عليه.. في الوقت الذي كانت فيه «سلمى» ومعها «رضوان» و«عادل» و«مدحت» و«إنصاف» في المستشفى؛ لتضع «هند» ابنه «سمير»، التي ولدت لتجد والدها بين جدران السجن.. خرجت «سلمى» كسيرة النفس، حملت ابنتها وعادت إلى الكفر - الذي وجد أهله حدثًا جللاً آخر يتحاكوا فيه، كأن القدر على موعد مع أهل هذا الكفر، عندما تبرد أحداث تلهب مجالسهم أحداث أخرى؛ ليتسلوا بها ويقضوا بها مجالسهم ليلاً أو نهارًا في العمل الشاق، كأن الكلام قوت يقتاتون عليه، يشبع هذه البطون - التي أوجعها الجوع، والظهور - التي كسرها تعب العمل، وخاصة عندما تكون الأحداث ثرية، وسيرة أناس قد لطخهم العار وهم من علية القوم عندهم، فيصبرهم هذا على الفقر، مع أن الفقراء أحباب الله ولا تخرج من بينهم العيوب، ولكن مَنْ معه مال هو عدو الله وسوف يحل عليه العذاب من الله، وهذا العار هو عذاب وانتقام من الله سبحانه وتعالى على الأغنياء؛ ومنهم «حامد» الذي دخل ابنه الوحيد السجن، و«رضوان» التي حملت ابنته الكبرى عارها وعادت إلى الكفر.. وتتوالى الأحداث التي ينتظر أهل كفر (باكوش) أن يعيشها «رضوان» حتى يلهي نفسه بها بعيدًا عنهم.

obeikandi.com

اختفت الشمس خلف أشجار الكافور العتيقة - التي يسمع صدى صوت أوراقها، وهي تهزها الرياح في (العزبة الكبيرة)، ومر «ماهر» على «الشغيلة» بعد أن هبط من (الزقازيق) ليطمئن على سير العمل في العزبة- التي عهد له «الشربيني» بكل أمورها، فتحملها وهو قادر على ذاك، فقد أغدق عليه «الشربيني» بالمال والوفير، وأعد له حجرتين خلف السرايا؛ وجهزهم ليبيت فيهم إذا أراد، فصنع لـ«ماهر» مكانة بين أهل الكفر والبلاد المجاورة، حتى أصبح يُعد من كبار الكفر؛ وخاصة أن نجمه قد علا بعد أن حصل على المركز الأول في الثانوية، ودخل (كلية الهندسة)، ولكن لم ينس أحد أن «ماهر» هو ابن «أبو طاحون»- الذي ما زال يدور في البلاد بحمارته السوداء؛ ليبيع البطاطا في موسمها، ثم يستبدلها بالترمس في الأيام الأخرى.

خلال تنقل «ماهر» من شجرة إلى شجرة من قطعة أرض إلى أخرى كعادته في (العزبة الكبيرة) أذن المغرب، وسمع صوت الشيخ «هجرس» يصدح به من أعلى مئذنة الجامع الكبير في الكفر، إذا بيد غليظة تهزه بشدة، حتى كاد أن يسقط في وحل الأرض، ونظر لهذه اليد فكاد يفقد وعيه، عندما رأى «زينب الخرساء» خلفه تجذبه بقوة تكاد تخلع كتفه، فقرر أن يهرب منها، فهو لم ينس بعد الجرح الغائر التي أحدثته في رأسه وهو طفل لم يتجاوز العاشرة، عندما كان يلعب الكرة في الجزيرة، واصطدمت الكرة ببقرة الخرساء، وكان هو أقرب الواقفين، فتناولت حجرًا من الأرض، شجت به رأسه، وسال الدم منه غزيرًا، وحملوه إلى «أم الخير»؛ لتحشر «البن» فيها لتوقف الدم، ومن يومها لم يقترب من الخرساء ولكن أين يهرب؟!

نظر حوله فوجد الدموع تملأ عينيها، فخاف أكثر منها، فلم يكن يوجد غيره في طرف (العزبة الكبيرة)، فإن هرب إلى فضاء الجزيرة فسوف تمسك به، وإذا هرب بين الأشجار لن يفلت منها، فهي تمسكه بقوة وتهزه، ولم تترك له فرصة ليهرب منها، فأذعن لها، ولم يفهم شيئًا من إشاراتها نحو الجزيرة، ولكن كتم أنفاسه واستسلم ليدها التي جرته إلى فضاء الجزيرة تجري به، حتى وصلت إلى حفرة عميقة، وجد أن بقرتها قد سقطت فيها، فوقف يلتقط أنفاسه، وعرف عمق الكارثة عند الخرساء، فكاد يفقد حياته من قبل عندما اصطدمت الكرة بالبقرة، ولكن البقرة تغوص بقدميها في حفرة عميقة، ولا تقدر أن تخرج منها، فهي قد قاومت حتى جرحت واستسلمت ومدت رقبتها، فكر «ماهر» بسرعة ولم يجد أمامه إلا حبلاً ربطه في رقبة البقرة ،و ساعدت الخرساء «ماهر» في شد البقرة من الحفرة، وفعلا خرجت.

أطمأنت الخرساء على البقرة بينما «ماهر» أنطرح على ظهره من فرُط تعبه، وبدأ يلتقط أنفاسه، حتى وجد الخرساء تجلس بجواره وتربت عليه، واطمأن هو الآخر لعدم غدر الخرساء به فجلس، ولكنه فكر في أمر الحفرة، فلا يوجد مَنْ يحفر في فضاء الجزيرة من قبل، ولا يعرف كل حياته أن أحدًا سكن الجزيرة من قبل، ولا الجزيرة ملكًا لأحد، فهي أرض مشاع لا يوجد لها صاحب؛ ولارتفاعها عن الكفر و(العزبة الكبير)، لا يوجد من يرفع لها الماء ليزرعها، فيلعب فيها الأطفال الكرة، وشق في طرفها طريق يربط الكفر بـ(العزبة الكبيرة) بالترعة والطريق العمومي، ففكر «ماهر» في أمر الحفرة وقام منتبها.

ذهب «ماهر» يتحسس الحفرة في ظلام الليل الذي حل على الجزيرة، حتى اقترب من الحفرة وهو وجل القلب.. يخاف أن يكون جحر ذئب من الذئاب فيخرج عليه، ولكنه عرف أن الذئاب تخاف النار.. فأخرج علبة ثقاب كانت معه، أشعل منها عودًا أضاء له المكان، حتى يقترب أكثر، فوجدها حفرة عميقة، واقتربت منه الخرساء فجلس يستطلع أكثر وأكثر، حتى مد إحدى قدميه فيها، وهبط بعد أن أمسكت بيده الخرساء، وتحسس بقدمه حتى وقف داخل الحفرة، ومال ينظر- وهو يشعل الثقاب، فشم رائحة غريبة ووهج يلفح وجهه في ليل الشتاء، فجلس وأنار أكثر، فانزعج، وكاد يصرخ مما رأى.

Obeikandl.com

١٠

تحسس «ماهر» ما رأى فوجده آثارًا ثمينة وتماثيل وأواني، فأدرك أنه كنزًا، مشي قليلاً فلم يصل إلى نهاية السرداب، وهبطت الخرساء تنير إليه، لم يشغلها ما رأت، المهم أن بقرتها خرجت من كبوتها سليمة، ولا تعرف أي شيء عن هذا المكان، بل هي تلعنه؛ لأنه كاد يقضي على أعز شيء في دنيتها - وهي بقرتها!!

الخرساء استعجلت «ماهر» - الذي دارت به الدنيا من هول ما رأى، فخرج، فأخذت بحبل بقرتها ومشت إلى بيتها، أما هو جلس لتعصف الأفكار برأسه مما رأى، كيف يتصرف؟! لم يصل إلى حل، فقرر أن يترك الأمر؛ حتى يهدأ ويفكر في الأمر.

ذهب «ماهر» مسرعًا إلى العزبة، وحمل بابًا على كتفه واتجه إلى الحفرة، وغطى الفوهة وأهال عليها التراب وسواه؛ حتى لا يشك أحد فيه، وأطمأن أكثر عندما وجد مكان الحفرة بعيدًا عن طرق ودروب الجزيرة التي اعتاد الناس أن يسيروا فيها، وعاد إلى العزبة وأغلق عليه بابه وظل يفكر ويفكر، حتى نادى الشيخ «هجرس» للفجر، لم يصل لقرار في أمره، هل يقول للناس؟!.. أم للعمدة؟!، فهو يكره العمدة، إن قال... فكيف عرف؟!.. وإن قال الخرساء هي التي جذبته إلى هذا المكان... فالخرساء قد تنكر؟! ولكنه قرر ألا يقول، لقد انفتح له كنز، بقي عليه أن يحميه، فهو يعرف أن لكل مال قوة تحميه، وهذا مع «رضوان» و«حامد» وغيرهم، فهو لابد أن يكون قويًا حتى يأخذ ما في الكنز ويحميه، فهو من حقه،

إذا كانت الجزيرة نفسها ليست ملكًا لأحد ولا حتى العمدة «رضوان» نفسه، ولا «الشربيني»، فهذا الكنز ملكه هو... هو سيد هذه الجزيرة من اليوم، وما دامت ليست ملكًا لأحد لابد أن ينقل ما في الكنز إلى مكان يملكه هو، ويخفي فيه ما يريد.

انتبه وبحث فلم يجد إلا بيت «أبو طاحون»، فكيف يشق كل الشوارع - وهو يحمل ما في الكنز إلى بيت «أبو طاحون»، فعدل عن تفكيره، وأخرج هذه الفكرة ليطرح بها على أرض الواقع، وقرر ألا يفكر في هذا مرة أخرى، ولكن أين يذهب بالآثار... فكر في (العزبة الكبيرة) وأرضها، فهو يعلم أنه بدأ أجيرًا ثم مسئولاً عن (العزبة الكبيرة)، وقد لا يدوم الحال له، وإذا ترك العزبة، فلن يدخلها ،أنه هو بالذات إذا تركها لن يدخلها ولو حتى متخفيًا، فبعد ما وصل إليه من مكانة عند «فاروق الشربيني»، فإن ترك العمل في العزبة، لابد أن يحدث أمر جلل، يجعله يترك هذا المكان، فكيف يخفي فيه الآثار، وهو لا يؤمن غدر الزمن... أطرق يفكر، وكان قد خرج إلى فضاء الجزيرة، ليطمئن أنه أغلق فوهة الكنز، ويبحث عن حفر أخرى يغلقها، واقترب مع شروق الشمس، واطمأن أن الخرساء نفسها إذا عادت للمكان قد لا تعرفه.

عاد إلى العزبة والأفكار تعصف برأسه أكثر، وقد صحا الناس... لم يذهب إلى الكلية وظل يدور في العزبة، قد يجد مكانًا يهتدي إليه؛ لينقل له آثار الكنز، وينتظر أن يجن الليل كي يأخذ سراجًا ويعود به إلى المكان؛ ليجلس ويعرف كل ما فيه. حتى يطمئن على مستقبله كم يملك؟! ولكن توقف عند «كم يملك؟!»، فهو يعرف أن ما رأى بالأمس ليس ملكًا

له، لأنه لو خرج وجلس على باب الكنز في وضوح ضوء النهار، وتجمع حوله أهل الكفر، فهل يقدر أن يمنع أي يد تمتد لتأخذ هذه أو تلك.

وما دام يخاف على ما في الكنز، ويخفيه ويعتبره سرًا، فهذا بالطبع ليس ملكه، لأنه لو وجد أي شيء، حتى حمارة «أبو طاحون» وأخذها لأقرب سوق ليبيعها ما قال له أحد شيئًا، ولا اعترض عليه أحد. إن الذي وجده في الجزيرة ليس ملكه، ولكنه عليه أن يحوله إلى ملك خاص له، ويبحث عن مكان يأمنه ليضع فيه هذا الكنز.

جن الليل فلم يذهب في أول الليل، ولكن مرت عليه دقائق وثواني هذا اليوم كأنها عمره كله، كان كمن يذهب إلى مصير مجهول.. أخذ سراجه وذهب واطمأن أن أحدًا لم يتبعه، جلس وحفر بيده حتى وصل إلى خشب الباب، وجذبه برفق وهبط إلى السرداب، وأشعل سراجه، وجلس ليرى ما جعله يكاد يفقد وعيه، رأى تماثيل صغيرة وكبيرة من الذهب، وأواني فضية وذهبية، فعلم أن كفر (باكوش) لم يكن إلا شاهدًا على عصر من عصور الحضارة المصرية القديمة، ففرح بما رأى، لم يأت وقت التفكير... كيف يحول هذه الآثار إلى مال يدخل جيبه؟!، الأولى أن يفكر في نقل هذه الآثار إلى مكان يملكه، وإن لم يجد، فلابد أن ينقلها لمكان يأمنه، ليس الجزيرة ولا العزبة ولا بيت «أبو طاحون»، فما هو هذا المكان؟!

١١

في اليوم التالي ذهب «ماهر» إلى (الزقازيق) وقرر أن يقطع أفكاره بأفكار أخرى تشغله، لأن ما رأى كاد يذهب بعقله ويجنه، قابل «عادل رضوان» عند جسر الترعة، فسلم عليه، وسارا ينتظران قدوم أتوبيس الساعة السادسة، ووجد عند حافة الكبرى على جسر الترعة «أمل» - التي نظرت إليه بغضب ،أنه بات في (العزبة الكبيرة)، ولم يشغله أن يمر على بيت «مصطفى» لتراه، ولكنه نظر إليها واقترب منها ليعتذر، فوجدت الشحوب على وجهه فصمتت، لعل عارضًا أصابه فأمرضه، والتمست في داخلها عذرًا له.

وبعد مدة قصيرة حضرت «نادية»، وفوجئت هي الأخرى عندما رأت «ماهر»، فعرفت «أمل» أن «ماهر» لم يذهب إلى بيت «أبو طاحون»، وحضر الأتوبيس وركبوا، فجلس «عادل» و«نادية» في كرسيين متجاورين وتركا «أمل» و«ماهر» في كرسيين آخرين وغابا عنهما في حوار.

جلس «ماهر» ساهمًا، وخطر على باله أن يأخذ «أمل» ويقول لها سر ما رأى، ولكنه نهر نفسه ووبخها، وساد الصمت، و«أمل» تتابعه وهو لا ينتبه إليها، فآثرت أن تنظر خارج الأتوبيس وتركته مستسلمًا لأفكار.

ذهب «ماهر» إلى (كلية الهندسة) وتركهم، واستغربت «أمل» و«نادية» من أمر «ماهر»، وسألت «نادية» لعلها تعرف شيئًا من «أمل» ولكنها قالت لها أنه لم ينطق بكلمة منذ أن ركبا الأتوبيس، فعرفت

«نادية» أن أخيها قد حدث له ما أهمه، وعليها أن تذهب إليه بعد محاضراتها لتسأله.

ذهبت «نادية» إلى «ماهر» فوجدته جالسًا ولم ينتبه لمجيئها، وجلست بجواره فأحس بها، وسألته ولكن لم يشف ما في صدرها من قلق.

ولكن قبل أن تغادر أجلسها وسألها :

- نادية: عايز اشتري مكان في الكفر يكون خاص بي.

استغربت «نادية» من سؤاله وضحكت :

- نادية: ليه ومنين فلوسه، إيه فلوسك كترت وبيت أم الخير وأبو طاحون معدش ينفع معاك.

فهزه ما سمع ولكن قام لينهي الحوار:

ماهر: خلاص خلاص .... أنت أصلاً تفكيرك طول عمرك على قدك... روحي كليتك..

وذهب وتركها أكثر استغربًا وقلقًا عليه.

١٢

عاد «ماهر» إلى الكفر، حتى يثبت لـ«أمل» و«نادية» و«عادل رضوان» أنه لا يوجد ما يقلقه، فقد مر على «أمل» في بيت «مصطفى»، وجلس معه يتجاذب الحديث حول الشجر والزرع وما به، ولكن لم يطل به المجلس، فقد خرج إلى «عادل رضوان» الذي أخذه وذهب به إلى قهوة «برغوت»، ولكن «عادل» قبل أن يصلا إلى القهوة قال له:

- عادل: تعالى نروح الجزيرة.

ففزعه ما سمع من عادل، وخطر على باله أنه قد يكون قد تابعه بالأمس وهو في الجزيرة، فنظر إليه وقال له :

- وليه الجزيرة؟!

ضحك عادل بملء فيه :

- عشان تقلي مين شاغل بالك... وعارف ولو مش متأكد من الحب اللي بينك وبين «أمل»، واللي يعرفه كل الناس... كنت قلت فيه حب جديد داخل عليه.

فاطمأن «ماهر» لما قاله «عادل» ونظر إليه يتابعه.

عادل: حتى قابلت أخوك «حسين هجرس»، وقعدنا نضحك لدرجة أنه قال: «سيبه عشان تشك فيه «أمل» وتخرب بيته وبيت «أبو طاحون»».

وانتهى بهم الحوار على كرسيين في قهوة «برغوت»، وغاب «ماهر» في أفكاره و«عادل» يتابعه ويبتسم مرة، ويشده من كتفه؛ ليوقظه من أفكاره، ولكن أفكار «ماهر» كانت قد ثقلت وكثرت، فلم يقدر «عادل» أن يخرجه من ركامها... فجلس وصمت.

***

دخلت الخرساء وجلست حيث تجلس كعادتها.. ولم ينتبه «ماهر» إلى دخولها، فقابلها« برغوت» يجري، وأعد لها كوبًا من الحلبة - التي اعتادت عليه وناوله لها، وكان من عادتها بعد أن تنتهي من ارتشافه عن أخره، تأكل ما تبقى من حبات الحلبة، وتقوم لتذهب إلى بيتها وسط ضحكات الجلوس، فلما انتهت وقررت أن تقوم ضحك الناس عليها ومنهم «عادل»، فأفاق «ماهر» على صوت الضحكات، فنظر ثم قام مفزوعًا من مجلسه، عندما وجد أن الخرساء تنظر إليه، والحاضرون يضحكون فخاف من فضح سره، وتسأل - وهو خائف وجل من نظراتها له :

- ماهر: هي قالت إيه؟!

فرد عليه «عادل»، ليهدئ من فزعه الذي أحسه :

- وأنت مالك ومالها، الناس بتضحك عليها لما كلت حبات الحلبة ورمت الكباية في وش أخوك «برغوت».

فاطمأن «ماهر» وجلس، وغادرت الخرساء على فورها القهوة إلى بيتها:

-عادل: بس الغريبة يا أخي أنها منزلتش عينها من عليك، وضحك ضحكة كادت تخلع قلب «ماهر» الذي ضعف من السهر والقلق.

- عادل: الخيبة لتكون دي الحب الجديد اللي شاغلك، دا كان الواد «برغوت» مش قرصك... ولا أكلك بسنانه.

فنهض «ماهر» وشدته فكرة وعلى أثرها خرج من القهوة وترك «عادل» لـ «حسين هجرس» وهم يضحكون، وخرج صوب بيت الخرساء.

***

«زينب الخرساء»... ولدت لأبوين فقيرين - من فقراء كفر (باكوش)، وانجبا الخرساء ومنذ ولادتها وهي تفقد السمع والنطق فأطلق عليها الناس اسم الخرساء، وبنى «سليم» والدها بيتًا من الطوب اللبن... فقيرًا يعبر عن حاله في أحد أطراف الجزيرة، وبجوار بركة يملؤها الماء الآسن والبط البري، وأخذ ابنته التي كان الأطفال يضحكون عليها ويعايروه بها وزوجته وذهب إلى هذا المكان، كأنه هجر الكفر ليهرب إلى هذه البقعة ويعيش فيها، ثم أنجب ولدين توأم، وماتت زوجته وهي تلدهما، وجلست تراعهم الخرساء بمساعدة نساء الكفر وفطرتها.. حتى كبروا ووصلوا إلى سن الخامسة، وتركها أبوها تواجه الحياة ...وحيدة... فقيرة... خرساء ومات، فرعاها الحاج «مصطفى» وتكفل بها، واشتري لها (بقرة) كانت مصدر خير لها، وبارك الله لها فيها، فقد كانت تدر اللبن طوال العام، ولا ينقطع إلا بعدها بشهور لتلد لها،

وأصبحت (بقرة) الخرساء محل حديث كفر (باكوش) ورعتها الخرساء، فكانت كل يوم تأخذها إلى جسر الترعة منذ الصباح الباكر حتى المساء، لتأكل من الحشائش الموجودة على جسر الترعة، حتى اكتنز لحمها وأتي خيرها الوفير.. وعندما تعود الخرساء تحلب اللبن، لتشربه هي وأخويها، وتبيع ما تبقى.

كبرت الخرساء، فعطف عليها «مصطفى» الذي رعاها حق الرعاية، حتى شغل «برغوت» نفسه بالخرساء - التي تعودت أن تذهب إليه كل ليلة لتشرب كوبًا من الحلبة، وتعود إلى بيتها، فعرض الزواج منها على الحاج «مصطفى» فضحك وقبل، بعد أن عرض عليها الزواج فقبلت.

«برغوت» ليس من أهل الكفر، لقد هبط أرض الكفر صغيرًا لم يعرف أحدًا من أين جاء، ولا من هو؟! استقر هو الآخر في طرف من البركة، وعلي طريق يربط الكفر بالبلاد المجاورة، وعلى تقاطع طريق آخر لسوق يبعد عن الكفر يطلق عليه سوق (الخميس) ؛لأنه لا يعمل إلا يوم واحد هو يوم الخميس، وبنى له مكانًا من الخشب وجذوع النخل، وكان ينام فيه، ليزيد الكفر فقيرًا آخر، ولكن الناس كانت تذهب إليه لتجالسه، فأقام القهوة، وتوافد إليها الناس - رغم أن أمر القهوة كان غريبًا على كفر مثل كفر (باكوش)، ولكن تقبله الناس وذهبوا ليجلسوا عنده، وكان يشربون «النرجيلة» فيه.

قهوة «برغوت» لا يوجد فيها إلا عددًا قليلًا من الكراسي ليجلس عليها «مدحت رضوان» أو«حسين هجرس» أو «ماهر أبو طاحون» فقط، ولكن باقي أهل الكفر يجلسون على حصر من سعف النخل.

اقترب «ماهر» من البركة - التي تحيط ببيت الخرساء.. ونظر إلى بيتها، فوجده بيتًا فقيرًا، لا يرتفع إلى أكثر من مترين، وفكر أن يكون هذا البيت ملكه، ولكن كيف فهو أقرب بيت إلى مكان الكنز، وبعيدًا عن بيوت الكفر، ولا يمر عليه أحد، فلا يربطه إلا ممر ضيق وسط الزراعات، فطرأ على فكره كلمة «عادل» أن الخرساء هي حبه الجديد، وانتبه لكلمة قالها «عادل»، وهو يعلم أنها بعيدة بعد السماء عن الأرض، ولكن كيف يقنع الخرساء بنقل الآثار إلى بيتها؟! رصيده عندها ضخم، ولكن لا يصل إلى أن يقنعها بأن يحول بيتها إلى كنز، فقد تشي به عند «أمل» أو «مصطفى»، وهو يعرف حقيقة واحدة أن ما وجده من آثار ليس ملكًا له، فهو ملك هذا البلد الذي عاش على أرضه وتعلم، وكرمه عندما تفوق، ودخل ليتعلم في جامعاته.

شغل نفسه بوضع الآثار، ولم يشغل نفسه بحال البلد، فقد وقع على كنز، واعتبره ملكًا له- بشرط وحيد، وهو أن يأخذه من الجزيرة إلى مكان خاص به، ثم يتصرف فيه.

وقد وجد.. أنه بيت الخرساء، ولكن كيف يقنعها؟!

في اليوم التالي لم يذهب إلى (الزقازيق) وجلس في (العزبة الكبيرة) حتى أتى وقت الظهيرة، وذهب إلى حيث توجد الخرساء وبقرتها، فوجدها تستظل في ظل شجرة على الترعة، فمر عليها حتى انتبهت له، وقامت وسلمت عليه، وفهمت منه أنه جاء يطمأن على البقرة ووجدها بخير. ثم أشار إليها أنه يريد أن يراها بعد المغرب في نفس المكان الذي سقطت فيه البقرة، فضحكت وفهمت... وتركها وهو يعلم أنها قد لا تجيء... فكل الذي يشغلها هو أمر البقرة، وقد اطمأنت عليها.

وجد «ماهر» أن فكرة أن تظل الخرساء تحت نظره، حتى لا تبوح بأي سر لأحد، فتسلم رقبته إلى حبل المشنقة.. وذهب «ماهر» إلى مكان انتظار الخرساء، وما زالت الأفكار كثيرة في رأسه حتى أنهكت قوته، ولم يصل إلى حل في أمر الكنز وما به.

فزع «ماهر» ليد الخرساء تهزه فعرفها، واطمأن إليها، وزاح التراب من على فوهة الكنز، ونزع الباب - وهي معه، حتى هبط ليشعل سراجه، وأشار إليها أن تهبط، هبطت... ودخلا السرداب، وجلس ليريها ما في جوفه، وهي تضحك وتتهمه بالجنون، وهي تشير إلى رأسها وتلف يديها نحوها... و«ماهر» يضحك - وهي تبتسم، وهمت بالخروج، لأنها رأت ما في جوف السرداب من قبل وليس غريبًا عليها.

شدها «ماهر» من كتفها، ليجلسها مرة أخرى وجلست على ملل منه ومن أفكاره، فهي لا يهمها كل هذا.. وأشار «ماهر» أن تنقل معه بعض الآثار إلى بيتها، فضحكت، ولم يسترح «ماهر» لابتسامتها، ولكنها قبلت فأشار بكلتا يديه إلى رقبته، حتى تعلم أنه سر لا يعرفه أحد، لأنها وقتها سوف تقطع رقبته ورقبتها.. ففزعت عندما أشار إلى رقبتها، ولكنها قبلت، وأمسك أصابع يده بيده الأخرى وأشار إليها، ففهمت أن «أمل» لا يجب أن تعرف، ولا «مصطفى» ولا «رضوان» ولا أحد حتى «برغوت»، فهمت واستراح بعد أن فهمت، وأخذ قطعتين وهي قطعة، وصعدت من فوهة الكنز إلى فضاء الجزيرة، وأخذت ما معه من آثار وصعد هو الآخر، وأغلق فوهة الكنز، وشقا طريقهما إلى بيت الخرساء، ودخلت وهو يقف ينتظرها في وسط البركة ينتظرها حتى تشير إليه.

١٣

وقف «ماهر» متخفيًا في ظهر بيت الخرساء.. فتحت كوة صغيرة له.. أعطاها ما يحمله معه من قطع أثرية.. وحشر نفسه في الكوة - بعد أن ساعدته ليلقي نفسه في بيتها.. لم يحس به الطفلان النائمان.. ودخل إلى المكان المحدد من قبل.. حجرة واسعة بها قش وتبن لإطعام البقرة.. أخلى مكانًا بجانب الحائط وحفر حفرة بجانب الحائط، أما هي وقفت لتضئ له، ووضع ما أحضره من قطع فيها، وأهال عليه التراب، ثم أعاد القش والتبن مرة أخرى.. وخرجا.. تنفس الصعداء ومسح وجهه بطرف جلبابه.

أشار إليها بعد أن مسك رقبته بكلتا يديه، ليؤكد لها أن ما رأته سرًا وألا مات هو وهي.. ففهمت.. انصرف من نفس الكوة بعد أن حشر نفسه فيها مرة أخرى.. وغاب في المزارع، ليصل إلى حافة الجزيرة، ومنها إلى العزبة، ليبدل ملابسه التي هي جلباب و(لاسة) يغطي بها وجهه ورأسه حتى لا يعرفه أحد.

كان «ماهر» إذا أراد أن يذهب ليسرق الآثار، يقف للخرساء عند حافة الجزيرة مع مغيب الشمس، ويومئ إليها برأسه فتنتظره.

في إحدى ليالي شهر مارس... كانت السماء مازالت بها قطع من السحب؛ تحجب القمر وتنقشع عنه.. دخل «ماهر» يحمل الآثار إلى الزراعات القريبة، حتى وصل إلى بيت الخرساء.. ألقى ما معه من الكوة،

وحشر نفسه في الكوة، ودخل إلى الحجرة، وحفر حفرة أخرى، فأنهكه التعب وجلس؛ ليستريح، فجلست الخرساء هي الأخرى، ومدت ساقيها في الحفرة.. كانت ترتدي بنطالا بنيا كالحًا قطع الفقر بعد أجزائه.. فظهرت ساقيها وفخذيها من خلاله كنُتف القطن الأبيض.. فنظر «ماهر» فجأة، ليصحوا على شيء لم يفكر فيه من قبل.. فلحس شفتيه ليرتشف لعابه الذي سال، نما في جسده شعور غريب خدر جسده.. وأحس بدمه يغلي في عروقه.. فحضنها... استغربت إلا أن أنوثتها نادتها بعد أن صحت فجأة.. فلانت في يديه كالعجينة يشكلها تحته كما يشاء.. لم يشم رائحتها، ولكن ذاق جسدها، ولم يلتفت إلى الشعر الكثيف الذي يغطي ساقيها، ولكن حرارة جسدها ألهبت ناره.. فغاب عن الوعي وغابت معه، وانتهى كل شيء..........!

كانت لا تعرف.. الجهل قاتل.. ولم تفهم، ولم يقل لها أحد ما هذا ولا ذاك.. فهي تقضي يومها مع البقرة على جسر الترعة، ترى الرجال يستحمون فلم يشغلها شيء.. يخفون عوراتهم بأيديهم لم تر شيئًا.. ولم تتعرف على أسرار جسمها، لتكتشف أنها أنثى، حتى صحت فجأة على نشوة لم تعهدها من قبل.

عندما أفاقت من نشوتها وجدت «ماهر» مازال مطروحًا على ظهره وسط القش.. ولكن شعرت بدمها قد سال من عروقها.. إنها ذبحت.. نظرت إليه بحسرة، وداست على شفتيها بأسنانها.. فأحس «ماهر» بالشرر يتطاير من عينيها.. لقد شعرت أنها فقدت شيئًا غاليًا وثمينًا، ولكن لم تعرف ما هو؟!

قام «ماهر» مرتعدًا.. هو الذي أسال دمها.. لم يعرف كيف يتصرف أمام ثورتها؟!.. فأمسك بإصبعها، وأشار إليها أنه سوف يلبسها دبلة.. فدخل الهدوء إلى نفسها، وابتسمت كأن الدبلة التي يلبسها لها «ماهر» هي كل شيء.. وخرج من نفس المكان مثلما يفعل كل مرة، ولكن هذه المرة اختلف الأمر!

obeikandl.com

١٤

الخرساء هتك عرضها الجهل.. وظروفها، لأنها لا تسمع ولا تتكلم.. خرساء.. لم تفهم مبادئ وتقاليد، قد تنير لها طريقها.. وإن فهمت لم تعبر.. كل شيء متساوٍ عندها.. صوت جميل.. صوت قبيح.. لا تسمع ولا تتكلم.. ووقعت فريسة لـ«ماهر».. فإذا كادت أنفاسه تفتك بـ«أمل» وأسكرتها.. فماذا تفعل بالخرساء؟!

عندما رأته، أمسكت رأسه بكلتا يديها، ووضعت شفتيها على شفتيه وهو في ذهول... وقبلته بشوق.. كان يظن هو أنها ليست أنثي مثل النساء.. شعرت بأنوثتها، فكانت لا تعرف ما يدور بين الرجل والمرأة.. «ماهر» أيقظ كل ذلك في لقائه السابق، وأدركت هي نظرات «برغوت» إليها.. عرفت أن «برغوت» كان يحتاج منها شيئًا لم تعرفه من قبل.. كانت تظنه أنه سوف يدخل بيتها لينام فيه، بدلاً من نومه في القهوة.. ولكن عرفت أن هناك شيئًا آخر لابد أنه تعطيه لـ«برغوت» أرشدها إليه «ماهر».. ولكن هي شعرت مع «ماهر» بشيء لم تشعر به من قبل فعشقته، وكأنه الرجل الوحيد في هذا الوجود.. أما «برغوت» فكرهته، وأبت أن تعطيه ما تعطي لـ«ماهر».

دخل «برغوت» إلى بيت الخرساء، ووجد في نظراتها شيئًا غريبًا، لم يعهده من قبل.. فهو الذي أحبها، وذاب فيها عشقًا، ورغم ذلك لم يلمس جسدها بيده.. فكل ليلة يمر عليها؛ ليطمئن على أخويها وعليها.. فقد تعهد منذ أن وافق الحاج «مصطفى» على خطبته للخرساء أن يرعاها.. وأصبح أمرًا معهودًا أن يرى أهل الكفر «برغوت» في بيت الخرساء.

وضع «برغوت» ما بيده وأعطاها ما معه من نقود.. فقد اتفق مع الحاج «مصطفى» أن (يحوش) كل ما يجمعه من القهوة مع الخرساء، وهي تعطيه إلى الحاج «مصطفى»، حتى يجمع المبلغ المطلوب - الذي يتم به زواجه من الخرساء.. نظرت إليه فخاف من نظرتها، ثم دخلت بحجة أن تنام.. فترك ذلك حسرة في نفسه، وخرج إلى القهوة مكدر المزاج.

أما مع «ماهر» ...الوضع اختلف.. فـ«ماهر» هو الذي حرك فيها أشياءً كانت نائمة.. فكانت تعيش حلمًا جميلاً، وتحس بلذة اللقاء، ولم تفكر في «برغوت» أنه يمكن أن يعطيها ما يعطيه لها «ماهر» وكأن ما يعطيه لها «ماهر» حكرًا عليه.. بل كان «ماهر» يأخذها؛ ليدخلها ليلا إلى الكنز ويضاجعها فيه، وتحمل معه الآثار وتذهب إلى بيتها، لتدفنها بنفسها دون أن يأتي معها.

***

لم تعرف الخرساء أن ما فعله «ماهر» معها، قد جعلها تودع حياتها كبكر.. فالدم مثل الدم الذي تراه كل شهر تقريبًا.. ظلت تمارس نشوتها مع «ماهر»، كلما عاد إليها ليلاً أو ذهبت هي وقابلته عند الكنز، وأحست بأنوثتها فبدأت تهذب من نفسها وتستحم وتتزين لترضي «ماهر».

كل ما فعله «ماهر» كان مقابل خاتم من حديد اشتراه لها من (الزقازيق) في اليوم التالي - الذي هتك فيه عرضها، لكي يأمن شرها ونظراتها - التي رآها بعد أن ضاجعها.. وأصبح يشتاق إلى لقاء الخرساء فينزل من الزقازيق ليلاً للقائها ويبيت في (العزبة الكبيرة)، ثم يغادرها

في الصباح الباكر، دون أن يمر على بيت «أمل»، أو يذهب إلى بيت أبيه «أبو طاحون»، وقد تفاجئ «أمل» بذلك، فيعلل لها أنه انشغل في حسابات العزبة، وقضى ليله في العمل، ونام هناك.. فتصدقه ...!

أحست «أمل» بشيء يخفيه «ماهر» عليها وسألته ..! وفتهرب منها ولم يجب.. لم تعد أنفاسه تداعب أذنيها، عندما يذهب إلى بيت الحاج «مصطفى».. لم يعد يمارس معها هواياته القديمة.. فهي تقترب منه وهو لا يستجيب... لقد أشبعت فيه الخرساء شيئًا كان يبحث عنه عند «أمل»، ولكن التقاليد وعفتها قد منعته من أن يناله، ولكن وجده سهل المنال عند الخرساء.. فقد حققت الخرساء له معادلة، لن يجد حلها إلا عندها.. تنقل له الآثار، وعندما يحتاج أن يشبع فيها رجولته، يذهب وكأنها ملكه، ولا معقب لما يفعل.

شغلت «أمل» نفسها بسر تغير «ماهر» وشكت فيه!.. ولكن لم تجد لديها ما يقوي هذا الشك فتوقفت عنه.. هل هو على علاقة بأخرى؟!.. تابعته في الكلية دون أن يشعر، ولم تجد أي شيء.. فزاد سهادها وبعده عنها.. زاد عشقها له وتمنته ولم تنله.. حتى انتهى «ماهر» من(كلية الهندسة) وعمل مهندسًا في إحدى شركات القطاع العام بـ(الزقازيق).. وأنهى عمله في العزبة، وإن لم تنته علاقته بالدكتور «الشربيني»، فكان كلما أتى يوم الخميس من كل أسبوع، يذهب إلى (العزبة الكبيرة) التي تأثرت كثيرا عندما ترك أمورها.

زاد نشاط «ماهر» في نقل الآثار ومضاجعة الخرساء، حتى ترك ذلك أثرًا على جسده.. وضاقت الحجرة بما فيها من آثار، ولم يبق فيها مكان

يحفر فيه، فأعاد حفر الحفر القديمة وأضاف إليها.. وأصبحت الخرساء عنده كنزًا..!

لم يعرف أحد ما لدى «ماهر» من آثار إلا هو والخرساء- التي لا تشغلها الآثار في شيء.. لا يشغلها إلا جسد «ماهر»، وكانت تنظر إلى ما في يدها من أحجار وتضحك على «ماهر»، وتشير إليه بيدها لتتهمه بالجنون.. ولكن كانت ترضيه حتى يطفئ نار جسدها كلما يلقاها.. لم تعرف أن ما تحمله مع «ماهر» إلى بيتها وتدفنه معه في بيتها.. دم بلد يسيل مثلما سال دمها من قبل.. فقد كان جهلها كنزًا أخرًا لـ«ماهر»، استغله ليصل به إلى ما يريد!

لم يشغل «ماهر» نفسه أن يبحث عن أحد، يعرض عليه ما لديه من آثار.. لم يحن الوقت بعد.. بل حدد لنفسه أن ينقل ما في الكنز إلى بيت الخرساء.. فقد تحدث في الأمور أمور؛ فالجزيرة ليست ملكه هو، وأرضها مكشوفة فإذا جلس واحد في أقصاها يرى أطرافها كلها.. فعليه أن ينقل كل ما رآه من الكنز بسرعة.. أما (مافيا) الآثار لم يفكر فيها، فهو يعلم أن تجارة الآثار تحتاج إلى تخطيط.. فغلطة واحدة فيها قد تضع رقبته في حبل «عشماوي».

obeikandl.com

١٥

تخرج ماهر من (كلية الهندسة) وعُين في الشركة المصرية للإنشاءات.. ومنذ اليوم الأول له في الشركة أرسل له «توفيق الديب» رئيس مجلس الإدارة بالشركة على الفور؛ ليتعرف عليه، مما جعل موظفي الشركة يتهامسون.. وهذا خلق عدم ارتياح وريبة في قلبه، وسأل «ماهر» عن «توفيق الديب» فعرف أنه من ذئاب هذا الزمان.. وأنه يسيطر على كل ما في الشركة.. إذا خالفه أحدًا ادخله بمكيدة وراء قضبان السجن.. وتولى سامي الإدارة الهندسية بالشركة.. وتعمد «توفيق» أن يلتقي بـ«ماهر» كثيرًا بل ويرسله إلى (القاهرة) لإتمام مأموريات الشركة في الوزارة.

عرف «ماهر» أن «توفيق الديب» قد عرف عنه كل ماضيه.. فتوجس منه خيفة.. وكان «توفيق» إذا تكلم مع «ماهر» يُطْعم كلامه بماضي «ماهر» في كفر (باكوش)، وبدأ «توفيق» يكف يد «ماهر» عن بعض المعدات العملاقة التي قدمت إلى الشركة من الخارج... وسأل «ماهر» فعرف أن هذه عادته... وأن أي معدات تأتي إلى الشركة.. يضع يده عليها، ثم تكهن وتباع في مزاد علني يعده هو وسدنته، وتباع بأرخص الأسعار لصالح «توفيق» ومن معه... ولكن بعد توقيع «ماهر» على الأوراق.. خاف «ماهر» من «توفيق» وعمل له ألف حساب.. حتى أرسل له «توفيق» في أحد الأيام وبدأ يلف شباكه على رقبته.. فخاف «ماهر» أكثر.. وتشجع وبدأ يساومه، فوجد أن الأمر سهلاً، وقبل «توفيق» المساومة، وبدأ «توفيق» يلقي بما لديه ليغري به

«ماهر»، وكلما تمهل «ماهر» وقل كلامه كلما زاد عرض «توفيق» عليه مغريات أكثر.

أما «أمل» دخلت السنة النهائية (بكلية الطب)، وانشغلت عن «ماهر»، وهذا وجد عنده ارتياحًا.. وانتهت من الكلية وعملت في مستشفي (الزقازيق) الجامعي في الوقت الذي كان «ماهر» يحقق فيه تقدمًا مذهلاً في عمله، حتى أصبح المسئول عن الإدارة الهندسية في الشركة.. ولم يتقدم «ماهر» كثيرًا في علاقته بـ«أمل» غير كلامه مع الحاج «مصطفى» مما أثار حفيظة الحاجة «اعتدال» أكثر، والتي لم تسترح لـ«ماهر» وعلاقته بابنتها من قبل.

كانت «أمل» تأتي إلى الكفر مساء كل خميس؛ ليتحول بيت «مصطفى» إلى مستشفى، وتتجمع النساء والأطفال؛ لتجري عليهم الكشف الطبي.. في مساء أحد أيام الخميس، دخلت عليها الخرساء، تشكو من آلام أسفل بطنها، وعندما طلبت منها «أمل» أن تنام على السرير لتفحصها، فقامت مفزوعة تجري خارج البيت مسرعة، ووقفت «أمل» أمام ما فعلت الخرساء مذهولة، وشكت في الخرساء....!

ارتابت «أمل» في أمر الخرساء... وحاولت أن تفهم ما فعلته بالأمس، ولم تنم ليلتها.. ولكن تفكيرها لم يوصلها أن تربط ما بين مرض الخرساء تغير «ماهر».. لكن كل تفكيرها اتجه نحو«برغوت»، فهو الذي يدخل البيت.. فذهبت إلى والدها، وطلبت منه أن يعجل في أمر زواج الخرساء.. فضحك أبيها وقال لها: «هو اشتكالك أنت كمان.. أما واد عقله فارغ»... ولم ترد عليه.

لم تعرف الخرساء أن حياتها كبكر قد انتهت، وبدأت حياتها كأنثى.. فالدم مثل الدم الذي تراه كل شهر.. ما الفرق لم تعرف الحقيقة.. وظلت تمارس نشوتها مع «ماهر» كلما عاد إليها ليلاً.. بل كانا يلتقيان بدون أن يأتي بالآثار، كلما غمره الشوق ذهب إليها.. وهو يزداد نشوة ويمارس معها كل ما عرفه وتعلم غيره... وسأل... وعرف... وجرب... وأخضعها لتجاربه.. وبرغوت يزداد كمدًا.

عندما عرض «برغوت» أمر تغير الخرساء على «مصطفى» ضحك بملء فيه.. لم يعرف «برغوت» من يشكو إليه أمر الخرساء؛ حتى أصبح حاله حال.. وجهه اصفر وذبل لونه.

أما «ماهر» فحاله لا يختلف عن «برغوت».. أنهكت صحته.. وبان عليه الإرهاق والتعب، وهو لا يكل أن يقضي شهوته فيها.. و«أمل» أحست بحاله.. وعرفت أن حاله قد تبدل.. لم تداعب أنفاسه أذنيها.. كم اشتاقت إليه، عندما توقف عن ممارسة هواياته معها.. كانت تقترب منه وهو لا يستجيب لها، فعلمت أن هناك سر لابد أن تعرفه، وجال خاطرها هنا وهناك ولم تجد شيئًا.. ارتابت أن يكون على علاقة بأخرى.. ولكن هم في شهور الصيف ولم يهبط إلى (الزقازيق).. ولا يوجد في الكفر من يشغل باله.. فأقنعت نفسها أن الذي يدور في خاطرها هو مجرد شك!

استسلمت للواقع.

كل الذي يشغل بال «ماهر» هي الخرساء التي أحس ناحيتها بحب، وبدأت تتحرك نار غيرته عندما يجدها في القهوة عند «برغوت»، أو يرى «برغوت» عندها كل ليلة كعادته.. وبدأ يمنعها من الذهاب إلى القهوة،

وزاد كمد برغوت أكثر، حتى أصبح يراقب بيتها ليلاً، لعله يجد سببًا لتغيرها، فلم يصل إلى شيء ذو بال.. فقد كان يراقب باب بيتها ولم يعرف أن هناك سرًا آخر - وهو الكوة في خلف البيت.

وعندما عاد «ماهر» وفي أحد لقاءاته بالخرساء، أفضت إليه ما حدث عند «أمل»، فصعق وكاد يجن حتى أنه ضربها على وجهها ضربة، كادت تفقدها وعيها.. فأصبح الكنز وسره في خطر.. إلا أنها أكدت له أنها رفضت أن «أمل» تجري عليها الكشف، وعادت إلى بيتها دون أن تلمسها، ولكنه خاف من «أمل»، لأنه يعرف قدرتها في ربط الأحداث، ولكنه عاد إلى هواياته القديمة في مغازلة «أمل» مرة أخرى، فذهب إلى بيت «مصطفى» في عصر الجمعة، واختار وقتًا هو يعرفه.. وقت يخلو بيت «مصطفى» منه ومن زوجه.. فوجدها وحيدة في البيت.. فضمها إلى أحضانه لأول مرة في حياته.. ووضع شفتيه على شفتيها؛ حتى غابت في نشوة جميلة - لم تتذوقها من قبل، وهي استسلمت.. فالأيام الخوالي قد طالت عليها، وزادت من شوقها له.. فلانت في يده، وعرفت أن هناك ما هو أكثر، يؤجج نار جسدها لدى «ماهر».

«ماهر» جمع الكثير من قطع الآثار؛ حتى لم يتسع المكان في الحجرة للآثار؛ فحفر الحفر القديمة، وزاد على ما فيها.. وكعادته يحمل ما صغر حجمه، ورأى فيه من الغرابة ما يلفت نظره.. كنز وانفتح أمامه على مصراعيه ينهب منه ما يشاء.

لم يصارح أحدًا بأمر الكنز.. ولم يصل إلى حل مع نفسه كيف يتصرف فيه عندها؟!.. ولكن زادت ثقته بنفسه، وجعلته يحس أنه أغنى من الحاج

«مصطفى» وعمدة كفره والدكتور «الشربيني» نفسه.. ولكن لابد من تسويق لما لديه.. فهو يعلم أن كل بضاعة لابد لها من تسويق.. ولابد لها من خبير، يعرف فيها ويقدرها.

***

بدأ يبحث «ماهر» عمن يعرف قيمة ما لديه، حتى توصل إلى «محروس» الذي كان يعمل من قبل في «تل بسطة» بالزقازيق.. كان يعمل حفارًا، ينقب عن الآثار.. وقد عمل في إحدى الشركات القريبة من الشركة التي يعمل فيها، يحرس معدات الشركة.. فيذهب كل ليلة للسهر معه، ويجر معه خيوط العمل في الآثار.. ومَنْ يعرف فيها ومَنْ لا يعرف.. وكعادة «محروس» ومَنْ يعمل في مهنته أن يصف نفسه بأنه يعرف كل شيء وفي كل شيء، حتى أنه ترك العمل في التنقيب هو خبير في الآثار.. و«ماهر» يجر معه خيوط المعرفة، ويخضع ما يقول لمنطقه ويفرز كلامه.. وكل ذلك «ماهر» يغريه أنه ممكن أن يتزوج من إحدى بناته.

وفي ليلة ألقى «محروس» باسم أحد تجار الآثار.. واقسم لـ«ماهر» أنه على حق فيما يقول.. بل حتى يصدقه سوف يأخذه إلى بيته، حتى يعرف «ماهر» من هو «محروس» عند الرجل.. وفعلا وكل ذلك و«ماهر» لا يُعلم «محروس» بما لديه من آثار، ولا يعرف «محروس»- ما سر ذهاب «ماهر» له كل ليلة ليسهر معه؟!

ذهب «ماهر» للحاج «عبد الخالق»، رجل تقي ورحب فعلاً بـ«محروس» أشد ترحيب.. وأجلسه هو و«ماهر» عنده حتى انتصف

الليل، وتجاذبا أطراف الحديث عن الذي مضي، وعن العمل في الآثار، وكل ذلك و«ماهر» ينصت ولا يتكلم، حتى شك فيه «عبد الخالق».. ولكن «محروس» أكد له أنه صديق وله صلة قرابة مع حرمه.

في الأيام التالية – التي كان هو و«محروس» يذهبان إلى «عبد الخالق» كان «ماهر» يسأل عما لديه من آثار، بحجة أنه يريد أن يعلم أشياء عن تاريخ مصر القديمة.. فزوده «عبد الخالق» ببعض الكتب – تساعده في معرفة هذا التاريخ.. وجلس «ماهر» يلتهم ما في الكتب من معلومات.. حتى وصل إلى حقيقة أن لديه فعلاً كنزًا لا يقدر بثمن، وعليه أن يحافظ عليه.

Obeikandl.com

١٦

كانت «أمل» تحلم حلمًا واحدًا.. حلم ليلة زفافها على «ماهر».. ليلة ينفض فيها كل شيء.. عندما كانت تفكر فيها تملؤها نشوة عنيفة.. ليلة تفصح فيها عن كل ما في قلبها وعقلها نحوه.. نعم سوف تقول له كل شيء.. لقد تعبت من الصمت.. صمت خانق - ربتها عليه أمها: «لا تبوحي ما في قلبك لأحد.. ولو كان حبيبك».. ولكنها سوف تكسر كل حاجز، كما كسرت حاجز المال والجمال.. فهي غنية، وهو فقر لا يضاهيه فيه أحد.. هي جميلة.. عينان عسليتان تخطف قلب من يراها.. هو نحيف.. قمحي اللون.. ترك الزمن والفقر على محياه آثار بالغة؛ لا تخطئها عين.. لم تتجاوز هذه العقبات وحدها بل أرغمت أمها وأبيها على تجاوزها.. وإن كانت أمها كل فترة - تعبر لها عن عدم موافقتها على «ماهر».. حلمها لا يغادر عقلها وقلبها.. ولكن متى تكون تلك الليلة....؟!

الذي تم حتى الآن هو قراءة الفاتحة، دبلة ألبسها لها على قدر حاله.. ولكن الأمور تعقدت!

***

«أم الخير» سقطت من طولها.. وحضر «ماهر» على عجل من (الزقازيق) بعد أن ذهب إليه «حسين هجرس».. الحال يسوء يومًا بعد يوم، حتى قرر الأطباء قطع ساقها؛ للإبقاء على حياتها.

«أمل» بحكم عملها طبيبة، تعرف مدى خطورة العملية على نفس وجسد «أم الخير».. قد ملأت أرض الكفر وشوارعه بخطواتها.. كانت

تعمل في كل شيء، وفي كل وقت وعند الكل.. المهم أن تحصل على قرش يسد رمقها ورمق أولادها.

أما «ماهر» عوده يذبل أكثر، حتى أصبح عظمًا يكسوه لحم.. لحم كأنه يحميه من الانفلات من بعضه.. «أمل» أعطته كل ما معها ...حتى أعطته ما اشتراه لها والدها من ذهب، وسط معارضة أمها.. «ماهر» يجمع قرش من هنا وقرش من هناك.. المهم أن يجمع ثمن أجراء العملية الجراحية «لأم الخير».

***

نسي «محروس» ولم يلقاه منذ مرضت والدته.. لم يخطر ببال «ماهر» أن يذهب إليه، ويعرض عليه قطعة أو قطعتين مما لديه من آثار، ليجمع ثمن العملية.. فقد سمع أرقامًا خيالية من «محروس».. ولكن عندما خطر ذلك على باله رفضه فورًا، ووجد حاجزًا بينه وبين أن يعالج أمه من ثمن الآثار المسروقة!!

جلس «ماهر» مع نفسه، عندما ضاقت به الدنيا، ولم يف بالمبلغ المطلوب، والوقت يمر، وحال «أم الخير» يسوء أكثر.. وجد أمامه حقيقة واحدة وهي: «كيف يعالج أمه – وهي أغلى ما لديه في الدنيا.. حتى أغلى من «أبو طاحون» من مال حرام..؟ فهو يدرك أنه مال حرام، فقد يحدث لها مكروه، ويظل يعذب نفسه باقي حياته.. نسي حتى أن يتابع الخرساء، فهي تعرف ماذا تفعل؟.. تذهب إلى الكنز، وتحضر ما تقدر عليه وتدفنه في بيتها.. وكلما زاد شوق اللقاء لـ«ماهر»، زاد نشاطها في جلب الآثار من الكنز ..!!

عرف «توفيق» ما يمر به «ماهر».. عرض عليه مبلغ أكبر.. «ماهر» يتحجج مرة... ويرفض مرة... ويختفي مرات من أمام «توفيق».. فهو قد رفض المبدأ من البداية.. رفض أن يقطع ساق «أم الخير» من مال حرام.. لم يفهم «توفيق» العهد الذي قطعه «ماهر» على نفسه.. كان يظن أنه كلما زاد الفقر والضيق، سوف يرضخ «ماهر» ويقبل أي مبلغ يعرضه عليه، حتى يوقع على ما يريد من أوراق.. وكلما رفض «ماهر»، زاد «توفيق» المبلغ.. بل رفض «ماهر» عرض «توفيق» أن يدخل «أم الخير» أكبر المستشفيات بـ(القاهرة)، وتتكفل الشركة بكل شيء.

مرت أيام ثقال على «ماهر»، حتى كاد يجمع الجزء الكبير من المبلغ.. واتفقت «أمل» مع الطبيب المعالج، أن يؤجل باقي المبلغ على أن يحضره «ماهر» بعد أجراء العملية.. المهم هو إنقاذ حياة «أم الخير».. ووافق الطبيب أمام خطورة الحالة.

جهزت «أمل» كل ما يلزم لـ«أم الخير»، وتم نقلها لإحدى المستشفيات الخاصة بـ(القاهرة)، ومعها «أمل» و«نادية».. فكانت «أمل» تذهب من (الزقازيق) إلى (القاهرة) يوميا دون كلل.. وجاء وقت إجراء العملية، وذهب «ماهر» إلى مقر الشركة، حيث كان يحتفظ بالمبلغ.. وخرج مسرعًا إلى محطة القطار- الذي يقله إلى (القاهرة).. قطع «ماهر» الشوارع مسرعًا حتى يلحق بالقطار، وفي أحد الشوارع سمع صوت سيارة مسرعة تقترب منه، فصعد على الرصيف حتى لا تصدمه.. ولكن السيارة أطاحت به، لتتطاير أوراق النقود في الشارع، ويسقط هو مضرجًا في دمائه... ويفقد الوعي..!

١٧

يفيق «ماهر» من غيبوبته- بعد أيام طوال وينظر حوله.. يجد نفسه ملفوفًا وساقه معلقة ورأسه ملفوفة، لا يظهر منها إلا عينيه.. لم يذكر شيئًا ولم يتذكر.. ثم راح في غيبوبة أخرى.. ثم أفاق مرة أخرى وجحظت عيناه، عندما وجد بجواره «أمل» و«نادية» والدموع تملأ العيون.. ثم نظر إلى أخته، ليجد السواد على محياها وملابسها.. فزع وصرخ بألم: أمي فين يا «أمل».. أمي عملت العملية.. هي فين.. بخير.

ونظر نحو أخته وحاول أن يمسك يدها فاقتربت منه وكأنه يتوسل إليها أن تخبره بالحقيقة: أم الخير فين يا «نادية»؟!.. أنت هنا وأمك فين..؟!

ثم صرخ بلوعة وألم: أم الخير فين.. راحت فين؟!.. وأنا بقالي قد إيه هنا؟!.. حرام عليكم حد يقولي!!

حاول أن ينزع ما على وجهه من أربطة، ولكن حضر الأطباء ومنعوه، ولم يحس إلا بوخز الإبر في فخذه؛ ليغيب عن الوعي مرة أخرى.

أفاق «ماهر» على حقيقة، أخبره بها «عادل رضوان» و«حسين هجرس».. وحضر رجال الشرطة إليه يسألوه إن كان يعرف مَنْ صدمه بالسيارة؟!.. رفض «ماهر» أن يفصح عن أي شيء داخله، بعد أن تأكد من حقيقة واحدة وهي أن «توفيق» هو الذي دبر له كل ما جرى..!

زاره في المستشفى الحاج «مصطفى» والعمدة «رضوان» و«مدحت رضوان».. وعاش مرارة المرض وألم الفراق في وقت واحد.. فراق أمه «أم الخير».. وأفاق على واقع آخر عرفه من «أمل».

«ماهر»: الفلوس اللي كانت معاي راحت للدكتور؟!

«أمل» بألم: مالقيناش معاك أي فلوس يا «ماهر».

فصرخ بعد أن صك أسنانه ببعضها: يا ولاد الكلب!!

سمعت «أمل» ما قاله «ماهر»، فسألته باستغراب عما قال، ولكنه راوغ وتهرب فصمتت.. وعلم أن أبيها الحاج «مصطفى» والعمدة «رضوان» والدكتور «الشربيني» قد دفعوا أجر المستشفى؛ حتى تخرج جثة «أم الخير».. فزاد ألمه الذي كتمه داخله!

حاول رجال الشرطة أن يصلوا من «ماهر» إلى الفاعل الحقيقي.. ولكن لم يفصح ولم يقل ما عنده.. والأمور تعقدت- عندما عرف أن عليه أن يدفع أجر العملية مرتين.. وزاد تعقيد الأمور، عندما علم أن ساقه اليمنى، قد تعوقه عن المشي، وسوف يجري فيها عدة عمليات، قد تنجح وقد تفشل!!

وفي أحد الأيام سمع صوتًا صاخبًا خارج حجرته، وفتح الباب إذ بـ«توفيق» يدخل عليه، ومعه سائقه، وفي يده باقة من الورود.. فنظر إليه «ماهر» بغيظ، فخاف أن يفضح ما في قلبه نحوه فصمت.. وبعد فترة طلب «توفيق» الأطباء المعالجين في حضور «أمل»، وسألهم عن حالته.. وقرر أن ينقله إلى إحدى المستشفيات الكبرى بـ(القاهرة)، ليكمل

علاجه.. وبعد أن ترك «توفيق» المستشفى، علم من «أمل» و«نادية» أن «توفيق» حضر عدة مرات وهو في الغيبوبة.

أجري «ماهر» عدة عمليات جراحية في (القاهرة) تحت رعاية «توفيق».. واطمأن على ساقه، ثم خرج إلى الكفر؛ ليقضي فيه فترة، ثم عاد إلى الشركة، حيث كان يذهب بسيارة الشركة صباحًا، وهو يسير على (عكازين)، ثم يعود إلى الاستراحة بعد العمل.

لم تفارق «أم الخير» خاطره.. وتذكر كل لحظة في حياته وهي معه.. عندما عملت في بيوت أهل الكفر؛ حتى توسع على أولادها.. وكان كلما تذكرها بكي بشده، وازداد حسرة وكمدًا.

خطط «ماهر» أن يكسب ود «توفيق»؛ خوفًا على حياته، وطمعًا فيما لديه.. وقرر أن يعامله بذكاء ودهاء أكثر من «توفيق» نفسه، بل لام نفسه على ما فعله، عندما لم يقدر ذكاء ونفوذ هذا الرجل.. ولكن عاهد نفسه أن ينتقم منه ،عندما تحين الفرصة؛ حتى لو قضي فيها حياته.. لن يكون وقتها غير عابئ بها!

عندما شعر «توفيق» بتغير في موقف «ماهر».. سدد ما عليه من مال، بحجة أنه أخرج كل ذلك من مال الشركة في شكل(سلفة).. وفرح «ماهر» أن كل ديونه تم سدادها.

وقرر «ماهر» أن جولاته مع «توفيق» لابد أن يخطط لها.. وإن دخل معه في لعبة، لابد أن تكون خطوطها وخطواتها هو الذي يحددها.. ولابد أن يعرف «توفيق» من هو«ماهر»!! فـ«ماهر» عند «توفيق» ثمنه غال، وفي يده ملايين يمكن بتوقيع منه أن يحصل عليها «توفيق» ومن معه.

عندما عرف «ماهر» ثمنه، فراوغ «توفيق»، ولكن خيوط اللعبة بحث عنها حتى كاد يصل إلى بعضها.. إنه بعد أن يوقع على أن الماكينات العملاقة الموجودة في الشركة غير صالحة، يأخذها «توفيق» ويبيعها لحسابه، ويعلم «ماهر» أن الماكينات أغلبها لم تعمل ولم تجرب، والبعض الآخر منها يحتاج إلى إصلاح بسيط، ولكن هذه هي لغة الفساد في هذه الأيام.

خطط «ماهر» لكل شيء، وترك حسن النية لغيره.. فعرف ما يريده من «محروس» - خفير (تل بسطة) الأثرية الذي تعرف عليه؛ حتى يعرف منه بعض أسرار بيع القطع الأثرية، ويعرف بعض رموزها- دون أن يعرف «محروس» أن «ماهر» لديه كنز ويريد أن يبيعه.. بل أوهم «محروس» أنه يمكن أن يتزوج من إحدى بناته الخمس، ولم يعرف عنه إلا أنه شاب فقير.. فلم يعرف «محروس» أن «ماهر» مهندس، ولم يعرف من أين؟

عرف «ماهر» ما يريده من الخرساء.. وعرف «ماهر» أن الخرساء تأخذ منه حقها، عندما يعود إلى الكفر، فهي أسهل ما في الخطة.. المهم عنده كيف يصل إلى ما يريد من «توفيق»، وعرف أنه لن يصل إلى شيء ذي بال منه، إلا إذا كان أذكى منه وأقوى منه ....!

١٨

انتظر «ماهر» أن «توفيق» يفتح معه أمر المعدات.. ولكنه كان أكثر دهاءً منه.. تركه حتى يطمئن له أكثر.. و«ماهر» هو الآخر كان أكثر حرصًا في التعامل معه.. كل منهما يعرف ما يريد الآخر.. «ماهر» لا يهمه أمر الرشوة، بقدر ما يتعجل أن يقضي عليه انتقامًا لأمه.

قرر «توفيق» أن يجر «ماهر» إلى حفرة من حفره، ولكن «ماهر» كان يعرف طريقه.. وطلب منه «توفيق» أن يذهب لينه بعض الأعمال في (القاهرة)، ورتب له مأمورية عمل طويلة.

سمع «ماهر» كثيرًا عما لدى «توفيق» من (فيلا) وشقق في أماكن كثيرة في (القاهرة)، وسمع عن أملاكه المتعددة، ولكن كانت ظروفه العائلية لا يتحدث عنها أحد، أو لم يعرف عنها أحد غير سائقه الخاص، وهذا يخافه الكل في الشركة، ويعمل له ألف حساب.

لم يخطر ببال «ماهر» أن «توفيق» سوف يغريه بأشياء ذو بال.. واعتقد أنه سوف يفتح أمر التوقيع على الأوراق ببساطة، وسوف يطلب منه ذلك بشكل مباشر.. ولكن «توفيق» كان أكثر دهاءً.

أرسل «توفيق» إلى «ماهر» الذي أصبح معافًا.. وضحك ونظر إليه بدهاء وخبث:

توفيق: «ماهر».. أنا عارف إنك مش ح تقدر تسافر وترجع كل يوم من (القاهرة) لـ(لزقازيق)..

وأخرج «توفيق» من أحد أدراج مكتبه ظرفًا، وأعطاه لـ«ماهر» ثم نادى على السائق الذي حضر مسرعًا.

«توفيق»: عم «سيد» ح يوصلك لشقة اسبشيل.. علشان تريح فيها.. ويا سيدي على الأقل تغير جو، وتنسى هموم اليومين اللي فاتوا.

***

خرج «ماهر» متوجهًا إلى (القاهرة) في سيارة «توفيق».. الشقة في (حي المهندسين) مجهزة على أرقى أثاث.. شيء لم يراه من قبل حتى في سرايا «توفيق»- التي كان يحلم بها ردحًا من الزمن أن يدخلها، ليرى ما سمع عما فيها.. اليوم رأى ما هو أرقى.. تأكد «ماهر» أن «توفيق» ليس سهلاً كما كان يتصور!

نام «ماهر» في فراش وثير ..غسل ما عليه من تعب الأيام الخوالي.. بل أحس أنه غسل تعب كل عمره السابق.. من ليلة واحدة فقط.. وسأل نفسه: «لو عاش في شقة مثل هذه.. فماذا يكون حاله؟»

في اليوم التالي رجع «ماهر» بعد أن أنهى مأمورية يومه.. رجع إلى الشقة بشق الأنفس.. فهو لم يعهد (القاهرة) وشوارعها من قبل.. فتح الباب وأراد أن يذهب إلى السرير ولكن جال في خاطره قبل أن يدخل الشقة أن يكتشف ما بداخلها.. فهو لم ينته بعد من معرفة أثاث الشقة، ولم يدر بباله أن يفتح شباكًا ينظر منه.. ولكن وجد بالشقة ما لم يتوقعه.. وجد عم «سيد» السائق، وطلب منه أن يحضر إلى (فيلا) «توفيق» فورًا!

نظر إلى نفسه في مرآة قريبة.. وجد ما عليه من ملابس لا تليق؛ حتى يدخل (حي المهندسين).. فهو يرتدي قميصًا وبنطالاً أكل عليهما الدهر وشرب؛ بل إن آثار طين كفر (باكوش) على حذائه.. فكيف يتصرف؟!

وسأل نفسه إذا كان ما رآه بالأمس ما زال يبهره ولم يفق منه.. وهذه هي إحدى شقق «توفيق» - التي سمع عنها.. فما هو الوضع في فيلا «توفيق»؟!

أكيد شيء لم يخطر بباله من قبل.. ولكن الذي شغله هو.. لماذا يطلبه «توفيق» على عجل؟.. دارت في خلده أفكار كثيرة، ولكن لم يهتد إلى جواب... يجيب عما يدور في فكره.. ولكن لم يقدر أن يوقف عقله عن الأسئلة.. هل أراد «توفيق» أن يضعه في مأزق كعادته؟.. وإن رفض أن يذهب إليه.. ما الذي يحدث؟

لم يمهله السائق كثيرًا، وأعطاه كيسًا كبيرًا قد ألقاه على الكرسي قبل أن يحضر «ماهر».. إذا به ملابس.. وبسرعة ارتدى «ماهر» ما ألقاه السائق وخرجا معا!

obeikandl.com

١٩

فيلا «توفيق» عندما تدخلها، تجد أمام الباب الرئيسي نافورة كبيرة، يحيط بها ممشى عريض، صعد «ماهر» بعد أن ارتدى ما ألقاه له السائق، ودخل ليجد الفيلا، قد ملأت عن آخرها بالضيوف.. كان يظن أن «توفيق» قد أعد له لقاءً خاصًا معه؛ حتى يكلمه عما يريد منه؟! وكان يعد نفسه كيف يساوم «توفيق» على ما يريد.

ولكنه سمع موسيقى ورأى أناس- قد رآهم في الصحف والمجلات، فعلم أن «توفيق» ليس بالند السهل، وعندما دخل قابله «توفيق»، وتركه وهو يقول له:

توفيق: خد راحتك.. كل واشرب.. البيت بيتك مش بيقولوا كده في كفر (باكوش).

وقد أحس «ماهر» من كلام «توفيق» أنه يذكره بنفسه من هو؟! فابتسم ومسح قطرات العرق - التي نزلت من جبينه، ونظر حوله فوجد كرسيًا قريبًا منه، فألقى بنفسه عليه ولم يتحرك.. ولكن عرف أن «توفيق» ليس سهلاً.

مر عليه الساقي، فأخذ منه كوبًا وألقاه في جوفه، ولكن رأسه قد ثقلت، ولم يقطع عليه تفكيره ويعيده إلى وعيه، إلا عندما رأى «توفيق» أمامه، يمسك يد رجل ذي هيبة، فقام «ماهر» متثاقلاً.. فعرف أنه «منصور عبد العال» وكيل أول الوزارة، كم رآه وهو يقضي بعض مأمورياته في

openkandil.com

الوزارة!!، تماسك وسلم عليه، ثم أتت «نجوى توفيق» - التي كانت تريد والدها، فسلمت على «ماهر» وعرفها «توفيق» بـ«ماهر»، فشغلت باله وجالت في خاطره أفكار ضحك عليها، عندما تصور أن يمسك يدها هي، ضرب رأسه براحة يده حتى يفيق، ولكن الساقي قد مر عليه مرات، ولم يحس بنفسه إلا وهو ينام في السرير بشقة (المهندسين)، ولكن لم يعرف كيف وصل إليها؟! وفزع فقام ينظر حوله فلم يجد أحدًا!!

أحس «ماهر» بألم في رأسه، فعلم أن ما شربه خمرًا، فنام وقرر ألا يغادر الشقة، وخلع ملابسه بصعوبة. ولكن استيقظ على يد تهزه.. فنظر إذ به السائق، فقام مفزوعًا؛ ليجد «توفيق» يجلس بالخارج ويشعل «البايب»؛ كأنه ملك زمام الأمر.. فجلس «ماهر» على أحد الكراسي فأشار «توفيق» للسائق الذي فتح الباب، وخرج ليبقى «ماهر» و«توفيق».

ظهر القلق على «ماهر»، وهم بالوقوف فأشار له أن يجلس فجلس، ولكن قلقه كان قد وصل حده، وحاول أن يقطع الصمت - الذي كاد أن يقتله، فقطعه «توفيق» بقوله :

توفيق: بص يا «ماهر».. إنت شفت طبعًا الناس اللي كانت موجودة عندي في الفيلا إمبارح.

فرد «ماهر» والقلق بادٍ على كلامه:

«ماهر»: أيوه يا «توفيق» بيه. «صمت».. ثم قام ولم ينظر إلى «توفيق» حتى يحس أنه ملك زمام أعصابه- التي كادت أن تفلت من عقالها وينفجر في «توفيق».

obeikandl.com

ماهر: رسالتك وصلت يا «توفيق» بيه.. بس نفسي أسأل سعادتك سؤال؟

توفيق: اتفضل يا باشمهندس.

ماهر: عايز مني إيه؟!

توفيق:إنت أذكى من كده يا باشمهندس.

ماهر: ما نجيب من الأخر.

فقام «توفيق» وأمسكه من كتفه :

توفيق: تمضي على الورق من سكات «ونخلص» الناس مستنيه.

ماهر: نسبتي كام في الموضوع ده.

توفيق: كنا تكلمنا في الموضوع ده.

فقاطعه «ماهر» وهو يضحك بسخرية :

ماهر: لا ..لا ..أنا أحدد اللي أنا عايزه.. أظن أنا خبير في المكن اللي تحت أيدي وأعرف كل مكنة تتباع بكام.

قاطعه «توفيق» :

توفيق: اللي تحدده يا باشمهندس.. بس خلي بالك الناس اللي فوق عايزين قدك!!

لم يكمل «توفيق» وقاطعه «ماهر» :

ماهر: بس أنا الأساس.

توفيق: ما اختلفناش.

واستدار له «ماهر»، وكشر عن أنيابه، وكاد يسأله عن الذي صدمه بالسيارة المجهولة وأخذ كل ما معه. ولكن «ماهر» أفاق، وعدل عن سؤاله، ولكن «توفيق» لم يمهله يفكر:

توفيق: كنت عايز تقول إيه يا باشمهندس.

ماهر: لا ...لا نوقع الورق، وقبل ما أوقع آخد نصيبي وأرحل.

توفيق: ح تسيب الشركة.. دا الأكل ح يحلي يا باشمهندس.

ماهر: مش عارف.. عايز أرتب أوراقي.

وضحك لينهي حواره، ولكن «توفيق» أمسكه مرة أخرى من كتفه وبصوت خفيض فيه تهديد لـ«ماهر».

توفيق: بس أوعي يا باشمهندس.. تعمل حاجة كده ولا كده.......!

«ماهر» ينزل يده بهدوء شديد :

«ماهر»: ماتخفش يا «توفيق» بيه.. بعد اللي شفته ...أنا اللي أخاف على نفسي- (ابتسم بخبث) - دا أنت طلعت حوت كبير وأنا ما عرفش.

فضحك «توفيق» وهم بالخروج، ولكنه توقف عند الباب الرئيسي.

توفيق: العربية ح تعدي عليك إمتى.. عايزك تستريح.. خد راحتك.. الشقة شقتك.. عايز تروح الشركة، العربية تجيلك زي ما أنت عايز سلام.

obeikandi.com

انصرف «توفيق»، وترك «ماهر» يغوص في أفكار عصفت بفكره.. وغسلت ما بقي من أثر ما شرب من خمر.. وأحضر ورقة وقلم، وأطرق يفكر في أمور كثيرة.. أولها كيف ينتقم من «توفيق» بعد أن عرف جزءً يسيرًا عنه، فخاف منه على نفسه.

obeikandl.com

٢٠

ذهب «ماهر» إلى الخرساء كعادته متخفيًا... دخل من الكوة المعهودة، لكن هذه المرة دخل بسهولة.. الأيام الخوالي تركت أثرها على جسده... كانت الخرساء في انتظاره.. دخلا إلى مكان الكنز.. أطلعت «ماهر» على ما حملته من آثار.. فأرضاه ما رأى، وظهر على محياه حتى أحسته الخرساء.

لا يشغل الخرساء ما تحمله وما تخفيه في بيتها.. الذي يشغلها ما تحمله من شوق للقاء «ماهر».. فهي لا تعرف ثمن ما تحمله.. المهم أن يرضي «ماهر».. هذه المرة أخذته بعنف وشهوة.. فقد غاب عنها كثيرًا.

«برغوت» مازال يراقب من الخارج... يراقب الباب.. و«ماهر» لص.. واللص لا يدخل من الباب إلا أحيانًا.. فالشباك يفي بالمطلوب... انتهى «ماهر» من مهمته – بعد أن نهشته الخرساء بأظافرها... ارتدى الجلباب والطاقية – بعد أن لف نفسه بشال، حتى يخفي ملامحه ..وخرج.. ولكن خطر.. له خاطر أن يرى بيت الخرساء من الخارج.. يراه بالحجم الطبيعي.. بيت من طين.. واطيء.. لكنه عند «ماهر» أغلى كنز.. أحس بشيء يتحرك حوله وسط الحشائش الكثيفة.. فنام على بطنه يراقب.. حتى ظهر له شبح يمر من أمامه.. شم رائحته.. كاد يصطدم به.. إنها رائحة المعسل.. فعرف أنه «برغوت» القهوجي.. راقبه «ماهر» حتى دخل الكفر.

شغل «ماهر» ما رأى.. شك «ماهر» في «برغوت» والخرساء.. ولكنه عرف كلمة سر الخرساء، كلمة سر جسدها.. أنها لم تعانق أحدًا غيره؛

وإلا كان ظهر عليها، فطرد هذا الخاطر سريعًا، وفكر في غيره.. خاف من «برغوت»، ولكنه قد يكون «برغوتًا»، ويقض مضجعه طوال ليله.. فهو يعرف مكر «البراغيت».. ولكن طمأن نفسه، مادام البرغوت قلبه بين أصابع الخرساء.. والخرساء فوقه أو تحته.. لكن الخوف قادم.

***

شغلت «أمل» نفسها بالانتهاء من الفرح.. كلما زاد عناد والدتها، زاد إصرارهـا على زواجها من «ماهر».. كل ما يشغل بالها.. من أين يأتي «ماهر» بالمال لإتمام الفرح؟، إذا كان لم ينته من سداد ثمن علاج والدته.. ولكن اطمئنت بعد أن أكد لها أنها لن تعيش في جحر الذئب الذي يسكن فيه مع «أبو طاحون» وإخوته، وسوف تسكن في (الزقازيق)؛ حيث يعمل.

لم تشغل «أمل» نفسها بسر «ماهر».. بل لم تعرف أن له أسرارًا كثيرة كالبحر.. فهو لم يحك لها عن شيء.. وهي لم تحاول أن تسأله.. المهم أنها أحبته - وهو يداعب حلمات أذنيها بأنفاسه الحارة.. أحبته وهو يسقيها من عسل شفتيه حتى الثمالة.. أحبته في كل أمر، وعلى كل حالة.. وحلمت به كثيرًا.. سيطر على أفكارها، فسيطر على عقلها وجسدها.. حلمت بأول ليلة- وهي بين ذراعيه.. حلمت بكل تفاصيلها.. حتى أصبحت أحلامها تسليها، وهي تبيت في المستشفى.. بل كانت تحس أنها بين ذراعي «ماهر».. فتنتشي وتسكر!

***

obeikandi.com

كان من طبع الخرساء أن تدخل إلى بيت الحاج «مصطفى» - كواحدة من البيت.. تفتح وتدخل، لا تطرق بابًا.. فكل أبواب البيت مفتوحة لها.. فالحاج «مصطفى» هو في مكانة الأب.. وهو الملاذ.. صعدت درجات البيت الخارجية، وجدت الباب مفتوحًا فدخلت... ولكنها صرخت صرخة مكتومة، عندما نظرت داخل حجرة الضيوف، فرأت «أمل» بين أحضان «ماهر»!!

دارت الدنيا بالخرساء.. فتقهقرت إلى الخلف - دون أن يحس بها أحد.. أحست أن «ماهر» يخونها، ويعطي من يريد من نار جسده.. حركتها غيرتها إلى الشارع مسرعة.. هائمة على وجهها.. وقررت الانتقام من «ماهر».

***

لم تحس الخرساء بنفسها إلا وهي تدخل إلى بيت «أبو طاحون».. قابلتها «نادية».. وجدت الدموع في عينيها.. احتضنتها وأجلستها، وحاولت أن تعرف منها شيئًا.. لم تعرف.. غابت «نادية» لتحضر شيئًا للخرساء.. ودخل «ماهر».. فوجد الخرساء.. فدفعته إلى حجرته بقوة.. وصفعته على وجهه، ورفعت له أصبعها - الذي ألبسها فيه «الدبلة» من قبل، وطالبته بتنفيذ وعده لها بالزواج، وخرجت مسرعة.

دارت الدنيا بـ«ماهر» وغاب عن الوعي.. لم يوقظه إلا صوت «نادية» تسأل عن الخرساء.. لم يجبها «ماهر»، وخرج هو الآخر مسرعًا... لم يحس «ماهر» بنفسه إلا وهو داخل السرداب، ملقى على ظهره في التراب..

تنبه «ماهر».. حاول أن يضبط مشاعره ويفكر فيما حدث.. فالأمر جلل، والدنيا انقلبت على رأسه في لحظات.

أفاق «ماهر» ووضع كافة الاحتمالات أمامه.. ولكن صك رأسه بيده بعد أن تنبه، وسأل نفسه: ما الذي غير الخرساء بهذا الشكل؟!

فكر في كل الأسباب، ولم يخطر بباله أن الخرساء قد رأته و«أمل» في أحضانه... خاف وارتعد.. لم يجد سببًا.. لم يفق إلا وصوت الشيخ «هجرس» يؤذن للفجر.. فخاف أكثر وندم كثيرًا أنه لم يذهب إلى بيت الخرساء، ويسأل الخرساء عن سر تغيرها.. فعليه أن يعيش الساعات القادمة حتى يجن الليل، ويذهب إلى بيت الخرساء.. كان يعلم أنها سوف تمر عليه كأنها دهر.. انتظر إلى أن أشرقت الشمس، وخرج يمشي وسط الجزيرة إلى أن دخل (العزبة الكبيرة).

كلما مر به النهار، زاد قلقه.. بل خاف من لقاء الخرساء - بعد أن أحس بألم في صدره.. من أثر دفعها له.. بل خاف أن تقضي عليه.. مر يوم طويل مرير، لم يذق فيه طعم النوم أو الزاد.. حتى غابت الشمس.. تأخر في (العزبة الكبيرة).. وذهب إلى بيت الخرساء، وهو يقدم رجلاً ويؤخر أخرى؛ كأنه ذاهب إلى حبل المشنقة - التي تقضي على أجله.

دخل من مكانه المعهود.. فقابلته في وسط الصالة، وكأنها كانت تنتظره.. وجد الدموع ما زالت تلمع على وجنتيها.. اقترب منها بحذر، ومسح خديها بيديه فابتسمت.. فهدأ.. فأخذها من يدها إلى حجرة الكنز وطرحها أرضًا.. وتغلب على تعبه ونام عليها.

أفاق «ماهر».. وجد نفسه على القش.. فنظر حوله لم يجد الخرساء، فقام مفزوعًا... بحث عنها وجدها تنتظره بالصالة.. جلس بجوارها على حصير قديم.. وحاول أن يعرف منها سر هذا التغير.. لم تشف ما في صدره.. ولكنه اطمأن.. وقبل أن يخرج جذبته بشده من ملابسه، ودفعته لأقرب حائط.. فخاف مرة أخرى.. وذكرته بوعده القديم.. فخاف.. لكنه ترك معرفة السر للمرات القادمة.

***

وجد «ماهر» نفسه في وضع حرج.. لم يطمئن للخرساء.. وخاف أن تغدر به ..ووعد «أمل» أن الفرح سيتم خلال شهرين.. كان كل ما يشغله هو وضع الخرساء.

وهي عندها ما هو أغلى من «أمل».. عندها الكنز.

كان من عادة «ماهر».. أنه إذا فكر في أمر، أن يحضر ورقة وقلم، ويخطط حتى يصل إلى حل.. لكن هذه المرة لم تطعه أفكاره؛ ليصل إلى حل يرضيه ويريحه.. فخاف أكثر.

عاش «ماهر» ليلة أخرى من لياليه السوداء... حاول أن يسيطر على جماح عقله.. ولكنه كان كالصاروخ وانطلق.. ولم يعرف السيطرة عليه.. أحس أنه وضع نفسه في مأزق خطير.. ولكن كيف يخرج منه؟!

٢١

قرر «ماهر» أن يقطع إجازته، ويعود إلى (الزقازيق)؛ حتى يرتب أوراقه من جديد.. دخل مكتب «توفيق» مباشرة.. وأخبره أنه يوافق على عرضه.. بسرعة انتهى «توفيق» من تشكيل اللجنة.

وغاب «ماهر» في (الزقازيق) أيامًا... ومرت ليال طوال على الخرساء.. فكرت فلم تجد أمامها إلا أمرًا واحدًا وهو أن «ماهر» قد أخلف وعده لها.. وجاء لها «برغوت».. فطردته فخرج من عندها مكسور القلب.. دون أن يعرف السبب هو الآخر؟!

حبست نفسها في البيت، وأخويها تولوا أمر البقرة.. حتى سأل عنها أهل الكفر.. فقد تكون مريضة وهم لا يدرون.. عادها الناس ليطمئنوا عليها فوجدوها مكسورة الخاطر.. عرضوا عليها، أن يحضروا لها الدكتورة «أمل».. رفضت بشدة.

كان كل ما يشغل الخرساء.. المنظر الذي رأت فيه «ماهر» و«أمل».. فهي تحب «أمل».. ولكنها غارت منها كثيرًا منذ هذه اللحظة.. لابد أنه يفعل مع «أمل» ما يفعله معها.. فقد تحرك داخلها قلب ينبض بالحب.. حب «ماهر».. قد أعطته جسدها ينهشه ووقتها لم تحبه.. ولكنها في هذه اللحظة أحبته؛ بل عشقته وهي لم تدر ما هذا الذي يحركها؟! ..اشتاقت إلى لقياه.. وعكفت على ذكراه.. فاشتعل قلبها نارًا.. حتى كرهت من أحبت.. كرهت «أمل»!

obeikandi.com

«اعتدال» كانت تريد أن يتزوج ابنتها «مدحت رضوان» أو أخيه «عادل»، حتى تتساوى الكفتين، فهي لم تؤمن يومًا بما آمنت به ابنتها، هناك فرق هي تعرفه بين «أمل» و«ماهر»، وأن كان الحب قد حجب بصرها على أن ترى «ماهر» على حقيقته، فـ«اعتدال» تعرف الحقيقة؛ لأنها لا يوجد عندها ما يجعلها لا ترى الحقيقة.

كانت «اعتدال» عندما تقابل «مدحت» في أي مكان، تعطيه الأمل في زواجه من «أمل»، وترغبه في الحضور أمام أهل الكفر إلى بيت «مصطفى»، وكان ذلك يلقى هوى في نفسه، فكان يذهب كلما يأتي من (الزقازيق) إلى بيت «أمل»؛ ليجلس مع «مصطفى»، وكان هذا يحرك كوامن نفس «ماهر»، فكانت «أمل» تهدئ منه أن خيوط الموضوع مازالت في يدها هي، وليس في يد «اعتدال» - والدتها فيهدأ «ماهر» مرة أخرى.

وأغرت «اعتدال» أن يطلب «مدحت» يد «أمل»، وفعلاً لقي هذا هوى في قلب «رضوان» نفسه، وذهب إلى بيت «مصطفى»، وطلب يد «أمل» من «مصطفى»، فاستغرب «مصطفى»، ولكنه علم ما تفعله «اعتدال»، حتى تقضي على علاقة «أمل» بـ«ماهر»، واستغربت «أمل» ما سمعته واضحًا من صوت «رضوان» المحشرج - وهي خلف باب حجرتها، وكادت تخرج وتصرخ فيهم بأعلى صوتها أن يرحموا ضعف «ماهر»، ولكنها صمتت وبكت، ولم يذكر «رضوان» اسم «ماهر» أثناء جلوسه مع «مصطفى»، وأمهلهم «مصطفى» ولم يعط لهم أي «أمل» في الرد؛ وخرج «مدحت» مع أبيه، وهو يشك في موافقة «مصطفى»عليه.

كانت «أمـل» تسكن في شقة بـ(الزقازيق) تستريح فيها طوال الأسبوع.. تأتي إلى الكفر ليلة الجمعة.. فينقلب بيت الحاج «مصطفى» إلى مستشفى.. الفقراء من أهل الكفر والبلاد المجاورة يتجمعون أمام البيت.. فتقضي وقتها في خدمتهم... فيتضرعون إلى الله أن يستر طبيبتهم.. دعاء يخرج من أفواه جائعة.. أفواه مريضة.. أفواه وقلوب صادقة.. فهذا هو أجر «أمل».. وهي ترضى، بل تحمد ربها عليه، رغم ما تبذله من جهد.

لم تقدر الخرساء على كره «أمل».. فهذا القلب لا يكرهه أحد.. ولكن هناك نار تشتعل في قلبها.. لم تعرف كيف تطفئها؟

طال غياب «ماهر» في (الزقازيق).. ولم يذهب كعادته للقاء «أمل» بعد العمل.. لم تشغل «أمل» نفسها بذلك.. هي تعرف أنه يشغل نفسه بإتمام الفرح.. وزاد هم الخرساء أكثر.. أما «ماهر» كلما زاد بعاده، كلما زاد خوفه؛ لأنه لم يعثر على حل يجمع فيه بين حب «أمل» وبين كنز الخرساء.

***

وفي إحدى الليالي بينما «أمل» تعيش مع «ماهر» أحلام يقظتها.. إذ بالخرساء تدفع عليها باب حجرتها، وفوجئت أنها تبكي بحرقة... قامت «أمل» مفزوعة وهدهدت عليها، وأجلستها على السرير.. فطلبت الخرساء من «أمل» أن توقع عليها الكشف.. استغربت «أمل»، ولكن بسرعة كشفت عليها.. فاكتشفت أنها امرأة... ففزعت «أمل» وأجلست الخرساء، وحاولت أن تعرف مَنْ فعل بها ذلك؟.. ومَنْ قضي على عذريتها وفضها؟

obeikandl.com

راوغت الخرساء في البداية؛ كأنها تراجعت أن تفضح أمر «ماهر».. فصفعتها «أمل» بيديها... فبكت الخرساء بشدة وأفصحت عنه..أنه «ماهر أبو طاحون».. وخلعت «الدبلة» من يدها، وأعطتها لـ«أمل».. وهي كسيرة القلب ..تركتها وخرجت مسرعة.

من هول المفاجأة دارت «أمل» في الحجرة، بعد أن دارت بها الدنيا، وقلبت كل موازينها.. مرة تشد في شعرها المنكوش.. ومرة أخرى تصك وجهها، وهي تبكي وتصرخ صرخة مكتومة، تشق صدرها من الألم.. حتى لا يسمع أحد خيبتها، وخاصة الحاجة «اعتدال»- والدتها- التي كم حذرتها من هذا الوحش الكاسر.. ماذا تفعل؟!.. ماذا تقرر؟!.. الأمر جلل.. يحتاج إلى قرار صعب، تقنع نفسها به أولاً حتى تقنع به الآخرين.. ما هو هذا القرار؟! كررت كثيرًا «يا ميت خيبة»!!

دفنت رأسها في السرير؛ كأنها لا تحب أن ترى أحدًا.. تتمنى ألا ترى الحقيقة.. وتحول الحلم الجميل إلى كابوس مخيف زلزلها.. وتحول حب «ماهر» بين لحظة وأخرى إلى كره، لم تجربه طوال حياتها، وتمنت أن لو أمسكته بيديها لقتلته، ودفنت هذه الجثة النتنة في وحل الكفر.. ثم أفاقت على حقيقة أذهلتها.. لابد من ستر الأمر ..لا من أجل «ماهر».. ولكن من أجل عرض الخرساء.. ولكن كيف تتصرف؟!

obeikandl.com

٢٢

حاولت «أمل» أن تنام فلم تقدر.. حاولت أن تتحرك فلم تقدر.. حاولت أن تنادي على والدتها فمنعتها الحقيقة المخيفة.. السرير الذي كم حلمت عليه بـ«ماهر» وقبلاته، تحول إلى شوك مدبب مثل شوك الجزيرة؛ بل أحد أسنانًا منه.. أغلقت الباب وأحكمته؛ حتى لا يدخل عليها أحد.. هول الحقيقة أخافها من الناس.. وخافت من نفسها.. أن يفضح وجهها الحقيقة.

نامت في السرير مريضة.. لم تذهب إلى المستشفى في اليوم التالى.. ذبل عودها.. حتى خافت والدتها عليها.. حاولت أن تكلمها.. لم تتكلم.. تركتها.. لم ينقذها إلا أن خرجت وتوضأت، ولم تقدر قدميها أن تحملها.. فجلست وصلت وبكت وأطالت في الصلاة؛ حتى تغسل وتنظف هذا الجرح الغائر- حتى تمالكت نفسها.. وفجأة قررت قرارًا أعطاها القوة.. أن تقوم وتتمالك نفسها.. ألا وهو قبولها الزواج من «مدحت رضوان».

خرجت في اليوم التالي صباحًا.. وجدت الحاج «مصطفى» جالسًا؛ وكأنها تصدر حكمًا على لص خائن: «أنا قبلت الزواج من مدحت رضوان».

خرجت الحاجة «اعتدال».. وكادت أن «تزغرد» أما الحاج «مصطفى» من هول ما سمع، لم يتمالك نفسه، ووضع عباءته على كتفه وخرج.. أما «أمل» هي الأخرى خرجت خلفه إلى (الزقازيق).

***

obeikandi.com

طلبت «اعتدال» من زوجها، أن يبلغ العمدة «رضـوان» وابنه «مدحت» بقبول «أمل» الزواج منه.. ولكن خبرة الأيام جعلته يتمهل.. لأنه يعلم ما في قلب ابنته من حب لـ«ماهر».. ولكنه لا يعلم حقيقة موت هذا الحب بين عشية وضحاها.. بل قد أقامت عليه مأتمًا، ولم تندب عليه كثيرًا.. فعلم أن هناك سرًا لابد أن يصل إليه........!

لم يغفر لـ«ماهر» أنه أصبح مهندسًا، فما زال الفقر ينضح في كل جانب من جوانب حياته.. إنه عند الجميع؛ وخاصة عند عمدة كفر (باكوش)، وابنه «مدحت»- من فقراء الكفر.. فليس من حق الفقراء التمرد على فقرهم.. ومن حق «مدحت رضوان» الزواج من «أمل مصطفى».. زواج الثروة ..!

لم يعرف أحد أن «ماهر» ماردًا يطول يوماً بعد يوم.. لقد أخفى حقيقة نفسه.. حتى وإن افتضح سره على يد «أمل».. إلا أنها كانت أشفق بالخرساء ولم تكشفه، رغم أن جرح حب «ماهر»، لم يندمل في قلبها، فقد خدمته الظروف في أخطر أمور حياته.. بل إن الخرساء لم تفش سره كله، فظروفها وفقدانها الكلام وجزء من السمع، جعلها تدرك خطورة ما تحويه حجرات بيتها من كنز!

إن اجتمعت أرض «رضوان» مع «مصطفى» فهي عز.. الأرض عز وزواج «أمل» من «مدحت رضوان» يحقق هذا العز من أوسع أبوابه، لم يخطر ببال «مدحت» زواجه من «أمل».. ولكن عندما دار خاطره نحوها سأل نفسه: ولماذا لا؟!.. وخاصة أن الظروف أصبحت لصالحه، بعد دخول «ماهر» في ظروف صعبة.. بوفاة أمه.. والحادث الذي كاد يودي بحياته.

obeikandl.com

إذا كان «رضوان» لم يمل تكرار طلبه من «مصطفى»، زواج ابنته من «مدحت».. فقد عرف أن الحاجة «اعتدال» تتمنى ذلك.. ولكن هذه المرة قد حدث أمرًا، فيه ما يجعل قلبه يطمئن أن طلبه، قد قُبل عندما قابلته «اعتدال» خلسة، وأخبرته بأن هذا هو طلب ابنتها.. ولكن الظروف وكلامه مع «مصطفى»، جعله ينتظر أن يرد هو على كلامه.

حاولت «اعتدال» تعرف سر تغير أمر ابنتها؛ ولكنها فشلت.. فهي كانت تعلم أن «ماهر» كان يجلس على عرش قلب ابنتها منذ أن عرف قلبها الحب.. ولكن هذه المرة هي التي أقرت بأنها سوف تتزوج من غيره.. ولكن هذا الأمر رغم أنه جاء على رضاها.. ولكنه جعلها تضرب أخماسًا في أسداس، حتى وصل بها شكها، أن يكون «ماهر» حاول أن يجرح عرض ابنتها فرفضته.. لم يتأكد لها شيء، حتى شكها هذا.. ولكن لابد أن يكون هناك أمر جلل عرفته «أمل»، جعلها تنزل «ماهر» من على عرش قلبها.

بعد صلاة العشاء.. ذهب «مصطفى» إلى بيت «رضوان»، وأبلغه بما أذهل «رضوان» و«مدحت» و«عادل» نفسه.. نظر «مدحت» في وجه أخيه «عادل»، فوجده مقطب الجبين، فهو يعرف ما بين «ماهر» و«عادل».. فـ«عادل» تحفظ على هذا الزواج؛ لأنه يعرف مدى الحب بين «أمل» و«ماهر».. فكيف يتم ذلك؟!.. وفى الليل ذهب إليه «مدحت» في حجرته، وحذره من الذهاب لـ«ماهر»... وأن الأمر كله ليس في يد «ماهر»، بل في يد «أمل»... وهى التي قررت ذلك.. لم يجد «عادل» أمامه غير «حسين هجرس» الذي ذهب إليه.

وفزع «حسين» ورفض ما سمع ...وبعد صمت طويل أرشد «عادل» أن يذهب لـ«ماهر»... ليعرض الأمر عليه ...ويعرف ما سبب هذا الفراق؟!

حاول «عادل» أن يخرج من الكفر، للقاء «ماهر» في (الزقازيق)، وعرف «رضوان» بالأمر... فرفض بشدة.. وأمام هذا الإصرار لم يجد أمامه إلا أن يرسل «حسين» إلى «ماهر» ويبلغه بقرار «أمل».

في الصباح الباكر خرج «حسين هجرس» قاصدا «ماهر» في (الزقازيق)؛ ليخبره بقرار «أمل».. وذهب إلى مقر الشركة في ضواحي (الزقازيق).. إلا أنه لم يجد «ماهر»، فقد ذهب مع «توفيق» إلى مقر الشركة لإتمام انعقاد اللجنة.. وأخبروه أنه لن يعود إلا يوم الخميس ...ولم يجد «حسين» بد إلا العودة إلى الكفر خالي الوفاض... بعد أن ترك له خبرًا أن يعود إلى الكفر فور عودته من (القاهرة) لأمر ضروري.. وفي سرعة البرق – كعادة الريف المصري – انتشر خبر موافقة «أمل» على الزواج من «مدحت رضوان».. فسر الجميع.

«أمل» كل يوم تسافر وتعود إلى الكفر.. تكتم في قلبها سرًا خطير يقضي على أي لحظة هناء تعيشها، وهي مقدمة على الزواج من خيرة شباب الكفر وابن عمدتها «مدحت رضوان».. ولم تعرف ماذا تخبئ الأيام القادمة لها وللخرساء؟!.. ذهب «عادل» إلى بيت «مصطفى»؛ لكي ينفرد بـ«أمل»؛ حتى يعرف منها سبب قرارها المفاجئ في الزواج من أخيه «مدحت رضوان».. دون جدوى.. القدر حال دون ذلك ..وإن قابلته لن تقول له أي شيء.. فماذا ستقول؟.. هل تقول له أنها طعنت في أغلى حب، دافعت

obeikandi.com

عنه أمام الجميع؟!.. هل تقول له ما فعله صديقه الغالي مع الخرساء؟!.. أم تقول له أنها انكسرت ولن تقوم لها قائمة بعد اليوم؟... تركت الأيام تفعل بها ما تشاء.. أنهكت من كثرة التفكير؛ حتى ذبل عودها، واصفر هذا الوجه الذي كان يشع نضارة وبهاء ..بل أصرت أن تكون الخطبة يوم الخميس القادم.. وأمام إصرارها وافق الجميع حتى والدها.

obeikandl.com

٢٣

انتهى «ماهر» من اللجنة يوم الأربعاء، ووقع على الأوراق التي تفيد بتكهين عدد من الماكنيات العملاقة.. ولم يكن هذا الأمر هو الذي يقض مضجعه.. ولكن الذي يقلقه موضوع الخرساء - التي لديها الكثير تقوله عنه.. بل تقدم رقبته لحبل «عشماوي».. فكيف يتزوج من «أمل» والخرساء في وقت واحد؟! ..قد يتزوج رجل من امرأة.. ولكن يتزوج بامرأتين أحداهما: «أمل» والأخرى الخرساء!!.. هذا أمر يحتاج إلى تخطيط.. هو يريد أن يمسك الدنيا بكلتا يديه.. لا يريد أن يفرط في أي شبر منها.. ولم يعلم حال الدنيا.. أنها إذا أيقنت أنك أمسكتها.. فرت من يديك وهربت ..!

لم يعرف «ماهر» أن أمره قد فضح.. قد جاءت اللحظة التي سوف ينفضح فيه أمره.. لم يخطط لهذا! كل الذي خطط له، هو أن يحافظ على الكنز، وما فعله بالخرساء غاية.. والغاية عنده تبرر الوسيلة.. المهم أن يحقق ما فيه مصلحته، وإن ظهر حملاً وديعًا، وانخدعت فيه «أمل» نفسها التي تعد نفسها حبيبته ..والقريبة من قلبه.. فكان قلبه قلب ذئب.. يفتك بضحيته على قارعة الطريق.. المهم أن يشبع.. فإذا جاع توحش.. و«ماهر» عاش كل أيامه الخوالي جائعًا... فبرر لنفسه كل شيء، وإن ظهر أمام الناس حملاً وديعًا، وليس ذئبًا مفترسًا.

«ماهر» كل الذي يهمه هو أن يأخذ الرشوة، وهي سوف تحل هذا اللغز.. فهي تشتري ما يقارب أملاك «رضوان» - عمدة الكفر.. يعني

في لحظة سيصبح أغنى من «مصطفى»، وندًا في الثراء لعمدة الكفر الحاج «رضوان».. ذاق طعم المال.. لا يهمه إن كان من حلال أو من حرام.. المهم أن هذا المبلغ يجعله في مصاف الأغنياء.. ويستطيع أن يحقق لـ«أمل» معيشة لا تحلم بها.. المهم أن يذهب في التو واللحظة إلى الكفر؛ ليتمم الفرح في أسرع وقت.. ولم يعرف ما ينتظره هناك.

لم يشغل أمر الخطوبة أحد من عائلة «أبو طاحون» أكثر من «نادية» الأخت الصغرى لـ«ماهر».. التي ذهبت لتعرف سر تغير «أمل»، فلم تعطيها الجواب الشافي.. حالت الحاجة «اعتدال» من أن تطول الجلسة بينهما.. بل أبعدت سالم في الأرض، بعيدًا عن بيت «مصطفى»؛ حتى لا يكون مرسالًا بين «أمل» و«ماهر».

***

أعطى «توفيق» المبلغ لـ«ماهر»- حسب الاتفاق يوم الخميس خارج مقر الشركة.. وجهز له سيارته الخاصة؛ حتى ينزل بها الكفر ومعه الحقيبة.. وضحك «توفيق» ضحكة فيها خبث وقال له:

توفيق: حتى لا تظن أن لي دخل في اللي حصل قبل كده في الشارع.. المهم يا باشمهندس.. توصل بالمبلغ في أمان لبلدك.. ونطمن عليك.

كلام «توفيق» ذكره بجرح لم يشف منه بعد.. فكتم غيظه وضحك، وركب السيارة الخاصة - بعد أن أسدل له السائق الستار على زجاج السيارة السوداء - ماركة «مرسيدس».. لم يشغل باله طوال الطريق.. كيف يخفي مبلغًا كبيرًا كهذا؟!.. فهذا أمر يسير له.. الذي أخفى آثار بلده، يستطيع أن يخفي أي شيء.. ولكن لن يكون في بيت الخرساء، حتى

يفك لغز تغيرها.. لم يخطر بباله للحظة، إن ما حدث في الكفر قد حدث.. وأن أمره قد فضح ..وأن رجله تسقط في حُفر الحياة.

دخلت سيارة «توفيق».. يركبها «ماهر» في الكرسي الخلفي عصرًا، تخلف وراءها ترابًا كثيفًا.. الكل ينظر ولم ير مَنْ بداخل السيارة.. حسبوه أحد مدعوين العمدة أو«مدحت رضوان».. لو عرفوا أنه «ماهر»، لقالوا له... عد كما كنت، وأحمل على رأسك تراب الكفر.. دخلت السيارة إلى الحارة وانحشرت فيها، حتى دخلت به أمام بيت «أبو طاحون».. نزل من السيارة وانحشر هو الآخر في باب البيت.. حتى دخل.. كل الذي رآه هو زينة على جانب الطريق.. ولم يشغله الأمر كثيرًا.

دخل ونادى على أخته «نادية».. لم ترد دخل حجرته، وأخفى الحقيبة وسط ملابسه – بعد أن حشرها في الدولاب القديم.. وأعد ماء وأستعد أن يستحم.. وظل يدندن بأغاني..

لبس جلبابه، وخرج لا يلوي على شيء صوب بيت «مصطفى».. مر وسط استغراب الجميع، حتى دخل إلى بيت «مصطفى».. الفرحة ولحظة الانتصار على الفقر، أنسته ما حوله من زينة.. دخل إلى حيث تجلس «أمل»، وانتظر منها أن تقابله بالأحضان والقبلات... ولم يعرف ما تحضره له.. حاولت والدتها أن تطرده شر طرده.. ولكن جذبته «أمل» من يده، وأدخلته غرفتها بقوة.. ضحك فلم تضحك.. حاول أن يلمس يدها، وجد البرودة قد سرت في جسمها.. ماتت المشاعر.. ومات القلب – الذي أحبه، فتحول الجسد إلى قطعة ثلج.. حاول أن يتكلم، فبادرته بقوة: إيه اللي عملته مع الخرسا يا «ماهر» بيه؟!

زاغ بصره، وكاد يسقط على الأرض.. لكنه تماسك ثم في تلعثم رد: عملت إيه.

نظرت إليه فلم يقدر أن ينظر إليها، فقالت له: حرام عليك.. دي بنت غلبانة.

لم يرد وتصبب عرقه.. لم تمهله طويلاً حتى تقضي عليه: - ياريت تروح تصلح غلطتك.. وياريت ما شفش وشك تاني.

نظر إليها ثم نظر في الأرض، فقالت:

- خلي بالك سرك في بير.. مش عشان خاطرك.. لا... عشان الغلبانة.

كاد أن يغشى عليه، وهمَّ بالخروج، فبادرته بصوت قوي؛ لتعلن لحظة انتقامها منه:

- يكون في علمك خطوبتي ح تم الليلة على «مدحت رضوان».

نظر إليها، وحاول أن يستوعب الموقف لم تمهله طويلا: - يمكن يعوضني عن خداعك لي.

تماسك ونظر إليها، ووجد مبررًا يدافع به عن موقفه:

- آه قولي كده.. و«مدحت رضوان».. ماتحوليش تبرري موقفك.. قولي عايزة تتجوزيه.. وأنا أوافق.. بلاش تعملي لنفسك مبرر.. كام مرة أقولك كده وتقولي ما تخفش.

ولم تمهله كثيرًا حتى يكمل كلامه، فتقدمت منه ولم تجد أمامها إلا أن تصفعه على وجهه.. فأمسك يدها، وتطاير الشرر من عينيه قائلا:

- بصي هايجي اليوم إللي أخليك تندمي أنت و«مدحت» فيه.

خرج مسرعًا لا يلوي على شيء.. ولكن رنات كلمات «أمل» تكاد تقتله.. خبر سر الخرساء أصبح بين يديها.. عرفته.. وأكيد أن تكون عرفت ما تخفيه الخرساء في بيتها.. أسرع عائدًا إلى البيت.. دخل مسرعًا إلى حجرته؛ ليجد الحقيبة مفتوحة، وكل ما في بطنها على السرير ..أفشت أسرارها هي الأخرى.. و«نادية» تقف وتنظر إليه في تحدٍ.. جمع كل شيء وأعاده إلى الحقيبة؛ ليجد أصبع «نادية» يشير نحو الباب ليخرج بها.

صرخ «ماهر» فيها بصوت كسير: أيوه فلوس رشوة.. أيوه بعت نفسي عشانها قبل ما تسألي.. ريحي نفسك.. مش عشان الفلوس ..ضاعت «أمل» مني.. مش عشان الفلوس اشتغلت «اكرواي» تحت إيد الناس.. مش عشان الفلوس أمك ما.....

صرخت فيه فسكت: أوعي تجيب سيرة أمك.. دي فلوس حرام.

صرخ بهسترية: وإيه الحلال في حياتنا.. أبوك.. ولا جحر الديب اللي عايشين فيه.. كام سنة نقدر نجيب بالفلوس دي.. عارفة د يشتري أرض العمدة كلها.. أرض «مصطفى» خلينا ....

لم يكمل.. وصرخت فيه أن يخرج.. وأمام إصرارها فخرج؛ ليجد عتمة المغرب قد حلت؛ لتزيد قلبه ظلمة، فهرب بنفسه إلى الجزيرة ،هائمًا على وجهه... قد تكون أحن عليه بعد أن لفظه الجميع.. فكم سمع ترابها أحلامه، فقد تكون أكثر رحمة عليه من بيته وحبه.. فهرب إليها.

Obeikandl.com

٢٤

كل الذي شغل «ماهر» بعد أن وجد نفسه مطرودًا.. هو الحقيبة وما بها.. ذهب إلى السرداب، وضعها تحت رأسه - بعد أن أحس أن أقدامه تتهاوي تحت جسده، مثلما تهاوت الحقائق كلها في لحظة..اعتبر ما مر به سوء تخطيط منه.. ظل يصرخ ويضرب رأسه في الأرض.. وبدأ التمرغ في التراب.. حتى دخل التراب في فمه ولم يفيق.

أفاق «ماهر» آخر الليل، وقرر الانتقام من الجميع.. الانتقام من «أمل» ومن «مدحت» ومن الخرساء.. ثم توقف ولكن بمَنْ يبدأ؟!

الذي لا يحتمل التأجيل هو الخرساء.. لابد أن يحافظ على الكنز.. فعليه أن يقرر بسرعة.. هذه المرة ثمنها حياته.. خرج من السرداب إلى فضاء الجزيرة، لعلها تتسع له.. سار هائمًا.. لا يسمع إلا أصوات الكلاب تعوي، والبوم تنعق.. وصوت قلبه.

دارت الأسئلة وملأت رأسه... وصل إلى درجة من الإعياء.. أسئلة بلا أجوبة.. أصبحت الخرساء أخطر عليه من أي شيء آخر وبسرعة، حتى لو وصل الأمر لقتلها.. توقف عندما نطق كلمة (قتلها).. واصطدم قدمه بحجر كاد أن يسقط.. سار يلف ويدور في الجزيرة كمن سكر حتى الثمالة، فظل يلف ويدور حول نفسه.. ولكن هذه المرة أمسكته أفكاره.. ما أصعب الأسئلة بدون إجابة مع كثرتها.. لم يهتد لأي أمر.. فعليه أن يغادر الكفر، قبل أن يسمع أصوات الطبول تعلن خطبة «أمل»

لـ«مدحت رضوان».. وفجأة صك صوت الآذان.. صوت الشيخ «هجرس»، يعلن عن أذان الفجر.. فعلي الذئب أن يدخل جحره.. فأسرع نحو فوهة السرداب فتحها ودخل إلى سجنه ليختفي.

ألقى بنفسه على التراب، بعد أن وضع الحقيبة تحت رأسه.. تثاقلت عليه الهموم.. غلبه النوم والجوع فنام.

استيقظ فجأة.. نظر من كوة مفتوحة.. وجد أن النهار قد انتصف من مدة، والشمس في طريقها للمغيب..وجد أن الجوع قد بلغ منه مبلغه.. فشم رائحة النقود- بعد أن فتح الحقيبة، فتناسي الجوع.. فقرر أن يقضي السويعات الباقية في عد ما في الحقيبة.. فكرة صائبة تشغله، قد تنسيه جوعه.

وقف «ماهر» وهو في الكنز.. نظر حوله في ذهول، وأحس أن كل ما أخذه منه ضاع فقرر، أن يتصرف بسرعة.. خرج من فتحة السرداب في الجزيرة، لم يسمع فيها إلا صوت الكلاب تعوي، والبوم تنعق، وصوت قلبه.. وفكر أن يدفن الحقيقة ويخفيها.

ليس هناك بد إلا قتل الخرساء، ولكن قبل أن ينتهي من أمر الخرساء، عليه أن يبحث عن مكان ينقل إليه الآثار؟!... وقع في نفس المأزق الذي وقع فيه من قبل... أين ينقل الآثار، ودار في الجزيرة متثاقلاً وأقدامه تغوص في ترابها، حتى وصل إلى طرف(العزبة الكبيرة)، وجده مكانًا مناسبًا لإخفاء الحقيقة فيه، بل هو نفسه يختفي فيه لأيام.

المكان الذي ذهب إليه «ماهر» مكان له خصوصية غريبة، فهو يجمع ما بين جسر الترعة وطرف (العزبة الكبيرة) والجزيرة.. تحيط به بركة من

الماء الآسن، تعيش فيها الثعابين والحيات.. يخاف الجميع أن يذهب إليه.. يحجبه عن الرؤية الحشائش العالية.. مكان أعده القدر؛ ليختفي فيه وبين جحوره- بعد أن طرده الجميع، ولفظه حتى بيت «أبو طاحون» نفسه- الذي كان ملاذه الذي يذهب إليه، إذا ضاقت الدنيا بوجهه.. وأصبح ذئبًا يتخفى؛ ليقضي على فريسته... ونام «ماهر» في بطن الجسر ليلة أخرى حتى أشرقت الشمس اليوم الثاني عليه.. وكان قد تخفي ليلاً وأحضر بعض الثمار من (العزبة الكبيرة) وأكلها.. فقد حرص ألا يراه أحد في المكان؛ حتى ينتهي مما خطط إليه. لقد مر بعدة صدمات.. الواحدة منها تكسر ظهر رجال، ولكنه اختار ذلك، فعليه أن يتحمل قدره ويصبر؛ حتى لا يضيع كل شيء من يده.

أخذته سنة من النوم وصحى على صوت الشيخ «هجرس»، وهو يؤذن لصلاة الظهر، وجد نفسه مبللاً والحقيبة أسفل رأسه.. ولكن سمع ما أفزعه من صوت أعلى الجسر.. إنه يوم الخميس، وسوف تكون ليلة من ألف ليلة وليلة.. فرح «مدحت رضوان» على «أمل مصطفى»، فزاد لهيب قلبه وكاد يفقد وعيه.. ولكنه تماسك وشغل نفسه بعد ما في الحقيبة.. فوجد أن «توفيق» قد خصم منه ما أنفقه عليه وأعطاه إياه، فضحك بسخرية على نفسه ومن نفسه ومن «توفيق» ..وزاد حنقه أكثر عليه.

بعد أن حل الظلام.. خرج «ماهر» يراقب بيت الخرساء من وسط البركة- التي أمام بيتها.. حتى اطمأن أنها في البيت وحيدة، وقد ارتدي ملابسه التي يسرق بها ما في الكنز.. وقد أحضر معه حمارة من (العزبة الكبيرة) ينقل عليها الآثار إلى بطن الجسر.

بدأ صوت الفرح يتوارد إلى ذهنه، فاشتعلت النار في دمه أكثر.. ولكن عليه أن يهدأ من نفسه؛ حتى يغادر الكفر بلا رجعة.. ولكنه حاول أن يغلق أذنيه حتى لا يسمع، ولكن الصوت كان أعلى من كل شيء؛ حتى كاد يصك أذنه.

أصبحت «أمل» ملكًا لعدوه.. زوجة لـ«مدحت رضوان»، وهذا ألهب قلبه أكثر.. لو كانت تزوجت «عادل» أو«حسين» مثلًا، كان أرحم عليه.. ولكن تتزوج من «مدحت رضوان».. هذه عنده كارثة جديدة، أضيفت لكوارثه؛ حتى وصل به الحد أنه كاد يتنفس من ثقب إبرة.. ولم يقابل هذه المرة «عادل رضوان»؛ ليفهم منه ما حدث.. ولم يصله أن «عادل» قد أرسل له «حسين هجرس» يعلمه بما تم.

دخل «ماهر» ملثمًا كالعادة إلى بيت الخرساء.. فقابلته بعد أن انحشر في الكوة الخلفية.. ولم يمهلها طويلاً.. حاولت فتح الباب خوفًا منه، ولكنه جذبها بقوة فسقطت على الأرض، وألقي بنفسه عليها، وعاجلها بعدة ضربات على رأسها، ففقدت الوعي، وتركها وقام من عليها مسرعًا بعد أن لفظت آخر أنفاسها.

قام من على جثتها مسرعًا، ينبش عن الآثار، وينقلها من الباب إلى أرض البركة ووسط الحشائش، ويحمل على الحمارة ويذهب بسرعة إلى بطن الجسر؛ حتى انتهى من كل شيء، واطمأن على نقل كل الآثار، وأهال التبن والتراب وسط الحفر- التي كان يخبئ فيها الآثار في بيت الخرساء، وأشعل النار فيها بعد أن سكب الكيروسين في كل مكان.

هرب مسرعًا إلى بطن الجسر.. وحمل الحقيبة وما فيها، وهرب من المكان كله.. كانت النار قد اشتعلت وارتفع لهيبها.. حتى أنارت الجسر و(العزبة الكبيرة)، ووصل لهيبها إلى الفرح.. وخرج الكل يجري صوب النار، ولم يعرف أحد من أين تأتي؟! حتى آتت على كل شيء... حتى على جثة الخرساء.

obeikandl.com

٢٥

انقلب فرح الكفر إلى حزن.. حزنًا على الخرساء.. فقد تفحمت جثتها، وأتت عليها النار حتى أخفت كل معالمها.. امتلأ الكفر برجال البوليس؛ للتحقيق في مقتل الخرساء.. لقد هز موت الخرساء كل قلب إلا قلب «ماهر» - الذي تحول إلى حجر لا يحس ولا يلين.

«أمل» عرفت أن «ماهر» وراء كل هذا.. قد كشر عن أنيابه، وقتل الخرساء، ليخفي فضيحته معها.. فحبست نفسها داخل حجرتها في بيت «مدحت رضوان» - الذي دخلته، وكل العيون تبكي على الخرساء. وفضلت أن تكتم ما تعرف، حتى لا تفضح أمر الخرساء.. وهي ميتة.. فإذا كانت قد سترتها في حياتها، فالأولى أن تسترها وهي ميتة.

لأول مرة تلقي «أمل» بنفسها في حضن «مدحت» وتبكي.. حتى سالت دموعه هو الآخر لما رأى من «أمل».. وبحث رجال البوليس والنيابة الذين امتلأ بهم بيت «رضوان».. استبعدوا فكرة السرقة من الأمر.. لأنه لا يوجد في بيت الخرساء ما يسرقه أي لص.. بحثوا عن البقرة فوجدها قد هربت من النار - التي اشتعلت فيها هي الأخرى، فألقت بنفسها في البركة وماتت.

لم يعرف أحد سر الكنز في بيت الخرساء.. ولم يعرف أنها حولت بيتها مع «ماهر» إلى كنز بدلاً من الجزيرة.. ولكن «ماهر» غدر بها وبسرق منها روحها، حتى لا تبوح لأحد بسره.. وانتهى التحقيق دون أن يصلوا إلى

أن هناك جريمة قتل.. ولكن كل ما في الأمر أن النار قد اشتعلت في بيت الخرساء - وهي نائمة، فقضت على كل ما فيه حتى البقرة.

لقد قضى «ماهر» على البقرة المبروكة - التي أوصلته إلى الكنز، وكانت سببًا في سعده.. ولقد حزن الجميع.. كل من يعرف الخرساء ومن لا يعرفها حزن على موتها.

ترك «ماهر» الشركة في إجازة مفتوحة من «توفيق»، وأخذ حقيبته وتوجه إلى القطار المتجه إلى (القاهرة)، وألقى نفسه فيه وهو رث الثياب.. أشعث الشعر.. الناس تنظر إليه وتبتعد عنه، ولا يلفت نظر الناس إليه إلا ما يحمله من حقيبة يحتضنها بين يديه... هبط في (محطة مصر)، ثم ألقى بنفسه في أتوبيس من أمام المحطة، ولم يسأل أين يذهب؟!.. حتى هبط في روكسي.. فقرر أن يغوص في شوارع القاهرة.. حتى لا يعرف أحد من هو؟!.. حتى هو لم يعرف الكثير عن شوارعها، ولم يعرف أين يذهب؟!

سار بعد أن هبط (ميدان روكسي)؛ ليقله الترام.. فوجد حديقة عامة، فهبط منه إليها، ودخلها دون أن يلوي على شيء، عندما وجدها في مثل هذا الوقت مفتوحة صباحًا... إذ بها حدائق« الميرلاند»، جلس على حشائشها مستندًا على أحد جذوع أشجارها، ووضع حقيبته تحت رأسه فأخذته سنة من النوم.. فلم يغمض له جفن منذ أن قتل الخرساء.. كلما نام ظهرت له في أحلامه تطارده، فيصحو يصرخ.. ولكن جاءت له الخرساء مرة أخرى ولم تتركه، حتى قام مفزوعًا وهو يصرخ.

obeikandl.com

تقدم منه رجل يسير على خشبة.. ساقه مقطوعة.. وأعطاه زجاجة ماء، ليخرجه من كابوسه.. فتناول منه الزجاجة وشرب وشكره، ذهب الرجل إلى كرسي قريب منه، وجلس يتناول طعامًا أحضره.. نظر إليه «ماهر»، وكاد يلتهم ما في يده من طعام.. فعرف أنه لم يذق الطعام من أيام.. فأشار إليه الرجل فتقدم «ماهر» يلتهم الطعام دون أن يلوي على شيء، فكف الرجل عن الأكل وتركه، فالتهم كل ما أمامه وسط نظرات الرجل ذو الساق الواحدة، حتى انتهى من طعامه، ولم يبق على شيء.

جلس «ماهر» بجوار الرجل دون أن تنبث شفتاه بكلمة لمن أطعمه.. ولكن الرجل ضاق به وسأله :

الرجل: أنت منين. منظرك مش من مصر.

ماهر: من بلاد الله.

الرجل: ضيف.. ولا تايه.

«ماهر»: لا.. تايه.

فنظر له الرجل ذو الساق الواحدة.. فضاق «ماهر» من نظراته، وقام مسرعًا إلى باب الحديقة.. وخرج منها إلى شوارع (القاهرة) مرة أخرى، ليغوص فيها كأنه يهرب من نفسه.

٢٦

بعد بضع سنين وعدة شهور، وقفت سيارة أمام بناية شاهقة، هبط من الباب الأول الرجل ذو الساق الواحدة، أنه «خليل الأعرج»... حيث هبط خليل بعد أن استعان بعصاه، ولكن تبدل حاله.. فقد ارتدى ملابس أنيقة، ولم ينس أن يربط الجزء المتبقي من بنطاله على ساقه المقطوعة، حتى لا يتسخ ويرتدى نظارة سوداء، ثم يهبط من الباب الخلفي - بعد أن فتح له السائق رجل شعره يميل إلى البياض قليلاً إنه «ماهر عز الدين».. صاحب الشركة المصرية للإنشاء والتعمير ..تقدم رجل أمن بسرعة، وحمل الحقيبة من السائق، ومشي داخل بناية يجرى.. أنقلب المكان رأسًا على عقب، لاستقبال «ماهر».. دخل «ماهر» وخلفه «خليل الأعرج»؛ حتى صعدا إلى مقر الشركة.. دخل «ماهر» مكتبه الأنيق الذي صممه يد فنان، يوجد به بعض المكاتب ليدل على نشاط «ماهر» في المعمار، وتزين الحائط خلفه صورة لمنظر طبيعي خلاب.. جلس على كرسيه، وخلع نظارته إذا بسكرتيرة حسناء تتقدم لتعطى «خليل» أوراق.. جلس «خليل» ووضع الأوراق أمام «ماهر»، ليلقي عليها نظرة.. فساد الصمت المكان ثم نظر إليه «ماهر» وقال: خليل خد العربية.. وروح الموقع ...حاول تخلص بسرعة.

قام خليل واقفًا مستندًا على عكازيه.

خليل: حاضر يا «ماهر» بيه.

وانصرف من أمامة مسرعًا- بعد أن أغلق باب المكتب.. أسند «ماهر» رأسه على كرسيه، وأغمض عينه وأخذ يفكر في حاله، ويقيم مسيرته الماضية.

بعد أن استقر المقام لـ«ماهر» في (القاهرة) لم يذهب إلى (الزقازيق) مرة أخرى، بل لم يستقيل من الشركة.. أسس شركة للمقاولات.. وأطلق عليها «الشركة المصرية للإنشاء والتعمير»، ووضع فيها كل خبراته، واستعان بمجموعة مختارة بعناية من المساعدين والمهندسين، وانتصرت الشركة وأصبح لها اسمها نسى الكفر ولم ينس الكنز، وضع كل فكره في عمله.. سهر ليلاً ولم ينم نهارًا، ودخل عالم الأعمال الخاص وكان الوقت ملائمًا، فحقق ما لم يحققه غيره في عشرات السنين.. عمل هنا وهناك.

ولم ينس أن يذهب إلى (ميدان روكسي)، ويحضر «خليل الأعرج»؛ هكذا كان لقبه.. بحث عنه كثيرًا، لم يجده حيث تركه ظن أن حدائق (الميريلاند)، سوف تكون مقره ولم يعرفه أنه شحاذ ليس له جهة.

لا مكانه.. فالشارع هو حياته، وجده والتقطه من الشارع، وأخذه بل أعطاه مبلغًا من المال ليبحث له عن مكان قريب من مقر الشركة لينام فيه، ويزيل ما عليه من أوساخ، وفعلاً كان نعم العون؛ بل كان يتابع مواقع العمل، وأحرز نجاحًا مع «ماهر» بشكل لفت الأنظار.

لم يعرف أحد في الشركة من هو«ماهر عز الدين».. الذين يعملون معه، لم يشغلهم البحث عن أصله. ولم يعرف أحد مَنْ هو «خليل الأعرج» أو عم «خليل»- هذا الرجل ذو الساق الواحدة كأنهما هبطا من السماء

في ليلة مظلمة أو نبتوا من الأرض وتسلقوا على جدار مجتمع؛ فنما النبت وأصبحت له جذور، وكلما مال المجتمع كلما قويت النبتة، وسهل طريقها في الصعود؛ حتى وصلت إلى أعلى المجتمع وغطته، حتى لم يعرف أحد مَنْ الذي تغطيه هذه النبتة تاه فيها ولم يظهر منه شيئًا.

اعتمد «ماهر» على نفسه في كل شيء، حتى «خليل» لم يعرف عن «ماهر» إلا أمور الشركة، بل لم يبحث في ماضيه عن أي شيء آخر، قنع بما يعطيه له «ماهر»، فلم يشغل باله بغير ما يكلفه به «ماهر»، ولكن لفت نظر «خليل» أن «ماهر» يغيب كثيرًا عن الشركة وعن المسكن القريب من الشركة، عندما يحتاجه لا يعرف مكانه، فشغل «خليل» نفسه.. أين يختفي «ماهر»؟! وصل «خليل» بعد متابعة «ماهر» بحذر شديد، فوجده يذهب إلى (طريق مصر -الإسماعيلية)، تتبعه بعد أن أخفى معالمه، حتى وصل «ماهر» إلى موقع بناء، فارتاب في «خليل» هل «ماهر» يكلفه بعمل ويشغله فيه، هو يشغل نفسه بعمل أخر؟!.. لمن تكون هذه البناية التي في أطراف (القاهرة) البعيدة؟!

لم يعرف «خليل» غير ما رأى في الموقع ..عمال بناء تملأ الموقع... بناية بعيدة عن القاهرة.. لماذا؟!

خاف «خليل» على نفسه أن ينكشف أمره، فشغل باله ما رأى، ولكن ليس أكثر، خاف من «ماهر» أن يكشف تلصصه عليه، فيعود إلى الشارع مرة أخرى؛ ليقضى فيه باقي حياته، فخاف من الشارع وقنع بما يكلفه به «ماهر».

شغل «ماهر» نفسه ببناء فيلا له في أطراف (القاهرة)، كانت لها تصميماتها الهندسية.. صممها هو بنفسه وشغل نفسه بها، وأشرف على التنفيذ.. كان يذهب إلى الميادين القريبة ويحضر (عمالة)، ويأخذهم للموقع، ويشرف عليهم، ثم يبدلهم كل أسبوع، فالذي يدخل المبنى ليعمل فيه، لا يستمر فيه إلا أسبوعًا واحدًا، وبدون سابق إنذار.

يخبره أن العمل بالموقع قد انتهى، ويغادر الجميع المبنى بغير رجعة صمم «ماهر» مبنى الفيلا في وسط حديقة كبيرة، نقل كل خبراته في أن يزرعها بيديه، انتقى كل شجرة فيها بعناية بالغة، ووضع في وسط الحديقة نافورة مياه.

أما مبنى الفيلا كان في مكان آخر الحديقة يقترب من الشوارع الجانبية، ولم يضع المبنى في الوسط.. قبل أن ينشئ «ماهر» الفيلا حفر حفرة كبيرة وعميقة، مبناها أسفل المبنى، أنشأ مبنى تحت أرض الفيلا، وخصص لها عدة سراديب، يخرج من أماكن محدودة بالحديقة، بعيدًا عن المبنى، كل سرداب له باب مغطى بباب حديد، ليهبط منه درجتين لأسفل بعد فتح باب حديدي آخر، ثم يدخل منه صمم بابًا أطلق عليه (باب الموت)، هو سرداب ليمتد إلى خارج الفيلا عند السور الخلفي للفيلا.

ويمر في الشارع إلى بناية من دورين، جعلها تحت الإنشاء وتركها؛ ليجعل فتحة السرداب فيها، وهى عبارة عن باب في وسط البناية، تهبط له بضع درجات؛ لتجد بابًا حديديًا تمر منه لتعبر للشارع؛ ومنه لأسفل الفيلا، واشترى سيارة نقل قديمة؛ ووضع بها صناديق قديمة، وضعها

في صندوق السيارة، ولم يشغل أحدًا.. لماذا السيارة؟! ..ومن أصحابها، بل من صاحب هذا المبنى الخلفي؟!.. لم يعرف أحد.

عندما انتهى «ماهر» من إنشاء الفيلا وما حولها أخبر «خليل» أنه اشترى فيلا في أطراف (القاهرة)، وأخذه إلى هناك، فأيقن «خليل» أن «ماهر» يخفى سرًا في مبنى الفيلا، وبحث هنا وهناك وفى كل مكان، لعله يهتدي إلى شئ، فقد رأى الموقع عندما تتبع «ماهر»، ثم رآه بعد ذلك مبنى ينطق كل جزء فيه بالإتقان والدقة.. بعد أن أخبره «ماهر» أنه اشتراه من أحد الأثرياء العرب، فزاد شك «خليل» أكثر وريبته.. ومن هو«ماهر عز الدين»؟.. ماذا يخفي؟.. ترك الأيام تجيب عن سؤاله، فقد أكل منه الشارع وشرب، وعلمه الصبر؛ بل أن الشارع هو مدرسة الصبر، فترك الأيام تخبره عما يخف «ماهر» عنه، وزاد حذره منه.

٢٧

في أحيان كثيرةً يكون الإنسان أضعف من أن يواجه نفسه، وينطق لسانه بالحقيقة، حتى تكون الحقيقة شبحًا يطارده.. تصبح ماردًا يطول ويطول ويطول حتى يعانق السماء.. فيطردها بعيدًا عن ذهنه؛ حتى لا تعذبه وتسود أيامه ولياليه.

«ماهر عز الدين» عرف حقيقة نفسه الأولى أيام كفر (باكوش) و«ماهر أبو طاحون» عرف حقيقة «ماهر» رجل الأعمال المشهور.. صورة جديدة أبدعها، في جو ساعده على ذلك.. جو اجتماعي انفتح على مصراعيه؛ ليرتع فيه ويترعرع هو وأمثاله، عاشه بكل تفاصيله، بل ساعده ورباه وكان على هواه..!

اشترى وسرق وأنشأ حوائط ومبان فارغة من المضمون والمعنى.. عاش مجتمعًا تستطيع أن تشتري فيه كل شيء.. تشتري ذمم.. تشتري ضمائر خربة.. تشتري أرض ليس ملكك.. كل ذلك بتراب الفلوس.. المهم أن تدفع، فالكل يسعى أن يقبض، ومَنْ يبيع يهمه فقط أن يحصل على الفلوس، حتى لو وضع نفسه تحت أقدام أصحابها، و«ماهر عز الدين» صاحب فلوس.. فلوس ليس لها حدود، والدائرة تدور وتلف، والثروة تزيد وتزيد كل ساعة، فيشتري ما يشاء في أي وقت شاء.

قوي عود «ماهر».. واعتمد على نفسه.. وحرص كل الحرص ألا يدخل أحدًا أو يشركه في سره.. فانشغل بنفسه وجمع الأموال فزادت أرصدته.. واشتهرت شركته.. واستعان بأناس لهم خبرة، نظموا عمله

ووقته.. فكان لا ينام ليلاً ولا يهدأ نهارًا.. كل ما يشغله هو أن ينجح.. ليثبت لنفسه أنه على صواب، ويقتل صوت ضميره.. ويثبت لنفسه أنه الأقوى.. أقوى من «رضوان» و«مصطفى».. بل أقوى من كلام وقيم ومبادئ «نادية» - التي طردته بما معه من أموال.. أقوى حتى من أغلب رجال زمانه.. فهو قد فاقهم في كل شيء، حتى في سرقة البلد.. وأحب أن يثبت لنفسه أنه سلك الطريق الصواب.. كلما زاد سيره في طريقه، يعلم أنه ليس على الطريق المستقيم.. بل على طريق الضلال، ولكن هو سلك الطريق الذي تصفق له أكف هذا الزمن، وفعلاً لم يقدر على شبح «نادية»؛ بل زاد وطال وأقض مضجعه.. وكل لحظة لا يريد أن يفكر فيها، يزيد تفكيره في كلامها ..أنه لص ومرتش.

***

بعد أن استقر به المقام في الفيلا الجديدة.. شغل نفسه بنقل الآثار.. فكان دائمًا يريد أن تكون الآثار في أرض ملكه، وهو قد جهز المكان وعليه أن يحقق حلمه، وينقل كل ما في الكنز وفي بطن الترعة إلى الفيلا.. قد استبدل سردابًا بسرداب حرام.

اختار «ماهر» ليال بعينها، ينقل فيها الآثار من(الشرقية)، فكان يخرج من الفيلا راكبًا سيارته إلى خلف البناية في الشارع الخلفي، ثم يترك سيارته، ويدخل البناية - التي بناها خلف الفيلا.. يرتدي الجلباب ويغطي رأسه بـ (لاسة)، ويركب السيارة - بعد أن يضع فيها صناديق السمك.. ويذهب بها إلى أحد التجار؛ ليشتري منه كمية من السمك.. ويذهب بها إلى كفر(باكوش)، متخذًا الطريق الصحراوي، حتى يصل إلى

جسر الترعة، ويهبط إلى حضن الجسر، ويأخذ ما يقدر على حمله، ويضعه وسط هذه الصناديق، ويركب ويسير إلى عائدًا إلى (القاهرة)، ثم يدخل من باب الموت؛ ليسير في السرداب إلى تحت الفيلا ويضع ما معه.. ثم يخرج ليركب سيارته، ويدخل الفيلا أمام الجميع مع حلول الفجر.

يكرر «ماهر» الذهاب لكفر (باكوش) مرتين كل شهر؛ يكون القمر فيهما بدرًا وقبل منتصف الليل، وتبع ذلك أن زاد نشاطه مع تجار الآثار حتى عرف أغلب رجاله.. بل حقق نجاحًا في هذا المجال، وحقق أيضًا مالاً وفيرًا.

لم يكثر من الخدم في الفيلا، لا يوجد إلا بواب وزوجته.. وخادمه الذي يبلغ الستين من عمره.. كان يقيم حفلاته في الفيلا حتى يعقد من خلالها الصفقات.. وأثناء الحفل توضع في سيارتهم، خارج مبنى الفيلا في شكل هدايا.. وينتهي الأمر.

لم يشغل «ماهر» نفسه بالزواج.. ولكن شغل نفسه بجمع الأموال، التي تهبط عليه من أعماله في البناء، حتى أصبحت شركته ذائعة الصيت في مجال البناء والتشييد.. والأموال التي تهبط عليه من مافيا الآثار، حتى عُرف في أغلب البلاد الأوربية.. حتى أصبح نجمًا من نجوم هذه الأيام.. وغطت الصحف أخباره.. وأراد أن يحمي نفسه أكثر، فدخل عالم السياسة.. ورشح نفسه عن الحزب، ونجح ليغطي نفسه بحصانة من البرلمان.. وتبرع إلى الملاجئ ودور الأيتام، وأنشأ المستشفيات، وشارك في إنشاء بعضها.. ولا تخلو جريدة أو مجلة اجتماعية من صوره فيها، ولمع نجمه حتى أصبح رجل البر والتقوى في زمنه.. أتقن صناعة الصورة حتى أنه كان لا يشتري إلا كبار النفوس في هذه الأيام.. كان يؤمن أنه لم يخسر شيئًا.. يأخذ من باطن هذه البلد، ليرش من على وجهها.

٢٨

عندما دخل «ماهر» فيلا «توفيق» لأول مرة انبهر بها.. وكان لا يعرف من أين يبدأ ولا أين ينتهي؟!.. ولكن عرف هذه المرة ما يريده منه.. أنه جاء ليتزوج من «نجوى توفيق» المعيدة في قسم الفلسفة.. وما دام عرف ما يريده من «توفيق».. أراد أن يتقرب منه أكثر.. قد حركه في البداية ما فعله فيه «توفيق».. ورجل في مثل مكانته، يجد له ألف طريقة، يأخذ بها حقه.. ولكن «نجوى» جذبته أول ما رآها- يوم أن دخل الفيلا.

قد عرف «توفيق» «ماهر».. و«ماهر» عرف من هو«توفيق» جيدًا.. ولكن الدنيا حاليًا هي دنيا «ماهر عز الدين»، عندما عرض «ماهر» رغبته في زواجه من «نجوى».. خاف منه «توفيق».. ولكن الدنيا التي صنعها «ماهر» قد أغرت «توفيق» وبهرت عينيه.. مع الشهرة والنجاح الذي حققه «ماهر» لا أحد يرفضه، وإن كان بدأ حياته العملية برشوة، قدمها له «توفيق» نفسه.. فالمال يمسح أي ماضٍ ويصنع ماضيًا جديدًا، وينهي حياة ويبدأ حياة غيرها.. بل ويصنع تفاصيلها، و«ماهر» الذي تركه «توفيق» منذ أن أخذ منه الرشوة.. غير «ماهر» الذي يعرفه المجتمع حاليًا.. فهو ليس مالاً فقط.. بل نجاح وسلطة وشهرة.

شغل «توفيق» باله بما عند «ماهر»، أمهله في طلب الزواج من «نجوى»؛ حتى يدبر أمره.. وحصر مشروعات «ماهر» فوجدها في كل مكان.. وتسأل إن كان «ماهر» أخذ منه رشوة، فهو قد أخذ أكثر من «ماهر»، ولم يصل إلى ما وصل إليه «ماهر» من النجاح.. فلابد أن

obeikandl.com

يعرف «توفيق» عن «ماهر» أكثر، والزواج فرصة جيدة فوافق، وانبهرت «نجوى» بـ«ماهر».

«نجوى» شغلها «ماهر»، وكان لا يعجبها كلام أبيها عنه – عندما تسأله.. وتمنته أن يكون زوجًا لها.. وقد تحقق الحلم.

أما «توفيق» حاول أن يدخل سرداب «ماهر» الذي لم يعرف عنه شيئًا غير أنه أخذ منه ما أخذ، ولكن لكل لص سرداب.

أما «ماهر» عرف أنه حفر حفرة لـ«توفيق»، وعنده ثقة أنه سوف يسقط فيها.. و«توفيق» خدع نفسه.. أن «ماهر» وقت الحادث – الذي دبره له، لم يعرف من دبره، فقد أعطاه «ماهر» ما أراد وقتها، وأنه شكره لأنه وقف بجانبه في علاجه.

فهذا يخطط ..وذاك يخطط وكلاهما يرسم.. والواقع ينفذ.. إنها الدنيا التي تجمع المتشابهان والمتناقضان معًا ..حتى يتم الله أمرًا كان مفعولا.

ولكن سار «توفيق» في نفس الطريق – الذي رسمه له.. ويوم أن فكر في الزواج من «نجوى»، كان لا يهمه الزواج.. ولكن شيئًا آخر خطط له كثيرًا.. كأنه لم يجد مَنْ يشبع رغبته بعد الخرساء – التي حرقها بيديه وحولها إلى فحم.. وعرف أن زواجه من «نجوى»، سوف يصل به إلى ما يريد من «توفيق».. بل هي برواز جميل، يساعده في المجتمع الذي يعيشه.

تم الزواج ..أصر «ماهر» أن يشهد على عقد الزواج كبار رجال الدولة، وأن يكتب العقد كبار رجال الدين، وتكلم الجميع عن هذا

الزواج الذي كان «ماهر» وحيدًا فيه.. لا يوجد بجانبه غير «الأعرج» ومساعديه في العمل فقط.. أما «توفيق» فقد حضر له الجميع.

أصبح «ماهر» هو الأقوى، وأصبحت فلذة كبد وعين «توفيق» – التي يرى بها الدنيا حرم «ماهر عز الدين».. وأمسك «ماهر» بكل ما يملك «توفيق» في يده.. وعرف أن المستقبل أو مستقبل «توفيق» في يده لأن حاضره وأغلى شيء معه.

لم يعرف «توفيق» مدى عمق الحفرة التي حفرها له «ماهر».. «توفيق» ظن أن الماضي قد ولى بلا رجعة، ولم يعرف أنه وقع في جحر ذئب. وطار «ماهر» من أحد الفنادق الفاخرة، ليقضي شهر العسل في أوربا.. وتم كل ذلك على حساب «توفيق»، ولم يخسر فيه شيئًا غير وقته – الذي ابتعد فيه عن شركاته.

عرف «ماهر» أنه قد لف الحبل حول عنق «توفيق»، وعليه أن يختار الوقت الذي يشد فيه الحبل ليرديه قتيلاً انتقامًا منه لموت «أم الخير»، ولم يعرف «توفيق» أن ما فعله، قد ترك جرحًا عميقًا.. ليس في ساق «ماهر»؛ فقط بل في قلبه وعقله وكل كيانه ..ولكن متى يشد الحبل؟!

٢٩

«نجوى» من أول ليلة دخل بها، اختلفت هي الأخرى عن الخرساء.. حاول أن يحولها إلى خرساء لم يفلح.. كانت تقابله مرة بالامتعاض.. ومرة بالهدوء.. ومرات بالتدليل.. جعلته يخجل من نفسه.. ففهم أن الجنس قد تكون نهايته واحدة، ولكن بداياته كثيرة ومتعددة.. لكل جسد لغته وثقافته، ولكل لقاء رونقه.. ولكن هو يريد أن يطفئ نار جسده، مثلما عودته الخرساء.. فكانت تهزه هزًا عنيفًا، وتجعله يسكر حتى الثمالة.. فاشتاق إلى اللقاء.. لقاء الخرساء.. ولكن أين هي؟

«نجوى» غير ذلك، طغت عليها ثقافتها، حتى في السرير.. فعرف أن الوضع تغير، وآمن بالتغيير – دون اعتراض، بل وافقها وهذب من نفسه ومشاعره.. هذب من جسده، حتى أعطاها ما تحب هي، لا ما يحب هو.. فكان عندما يشرد ذهنه، ويتخيلها أنها الخرساء.. يتوقف ثم يعاود اللقاء.. ولكنه اكتشف حقيقة أذهلته!..

اكتشف أن الحرام له لذة.. لذة تختلف عن الحلال.. فعرف سر النشوة التي هو فيها، عندما يحصل على ثمن قطعة آثار يبيعها، فعلاً كان يحس بحلاوة النشوة، فعرف كل ما يملك حرام، كان يحس بنشوة كل قرش، يزيد في رصيده.

أما «نجوى» فكانت تشعر أنه أفضل رجل في العالم.. كانت ترى فيه مثالاً للرجل الناجح.. رجل يملأ نجاحه الأسماع.. لم تعرف أنه سارق

آثار.. ولم تعرف أنه قاتل محترف، ولم تعرف أنه لص حتى في المشاعر.. نجح وبجدارة في أن يصور لها، ما تحب أن تراه، فكان بارعًا بحق ..!

***

«ماهر» لم ير حقيقة نفسه، لأنه كان يعيش دائمًا داخل برواز الصورة - التي رسمها لنفسه، ورسمها له الناس، فصدق نفسه.. ولكن لم يخطر بباله، أنه إذا كنت تريد أن ترى الحقيقة ،لابد أن تخرج خارج البرواز لتراها.. فـ«ماهر» عاشها من الداخل، وليس من الخارج، فكذب وصدق نفسه!

فالوحيد الذي يعرف أنه قاتل ولص ومرتش هو.. ولكن الصورة كانت ملامحها باهتة داخل نفسه، ولم تطبع في ذهنه حتى توقظه.. فالباهت غالبًا لا يلفت الأنظار.

انتصف يوم (القاهرة) في أحد أيام شهر إبريل في جامعة (القاهرة)، وفي إحدى قاعاتها.. جلس ثلاثة من أساتذة الفلسفة؛ لمناقشة الطالبة «نجوى توفيق محمد حسين الديب» في رسالة الدكتوراه، وتوسط المناقشين الدكتور «فاروق الشربيني» أستاذ الفلسفة والمشرف على الرسالة، ودخل «ماهر» متأخرًا، ولكنه وقف مذهولاً لما رأى، إنه الدكتور «الشربيني» - ولي نعمته، والذي رفعه في كفر (باكوش) حتى حصل على (كلية الهندسة).

لم يشغل باله بزوجته، ولم يشغل باله بها تعد، المهم عنده أن يجمع ثروة، ولم تأت المناسبة لتقول فيها« نجوى» أنها تعرف الدكتور «الشربيني»، جلس «ماهر» وابتسم له «فاروق»، ولكنه لم تحمله قدماه فجلس،

وانتهت المناقشة وأعلنت النتيجة، لتكتشف «نجوى» أن «ماهر» يعرف «الشربيني»، ودار حديث طويل، حضرته «نجوى» وانتهى اللقاء بتحديد زيارة لفيلا «ماهر عز الدين».

ولكن لقاء «ماهر» بـ«فاروق» قد قلب كل أفكاره.. كان يتصور أنه غاص في شوارع (القاهرة)، وغير اسمه من «ماهر أبو طاحون» – إلى «ماهر عز الدين» رجل الأعمال المشهور.. وبما فعل وغير قد أخفى على كل من يعرفه من هو«ماهر»؟!.. وما هو ماضيه؟!..إلا على شخص واحد وهو«توفيق».

ولكن القدر جره؛ ليقف مرة أخرى مع مَنْ يعرف، وهو«فاروق الشربيني»، قبل الحفل بأيام اعتذر «الشربيني» عن الزيارة؛ لأنه حدد موعد سفره إلى لندن في رفقة زوجته- التي اكتشف «ماهر» أنها تعرف «نجوى» جيدًا. بل وتزورها كثيرًا.. وحاول «ماهر» أن يصل إلى ما تقوله «سعاد الشربيني» عنه لـ«نجوى».. ولكنه اكتشف أن «الشربيني» وزوجته، لم يكن يعرفان أن «ماهر عز الدين» هو«ماهر بن أبو طاحون»، وإن عرفا لا يهمهم أن يذكروا ماضي «ماهر» أمام زوجته، وعرف «ماهر» أن «سعاد» ما زالت تبحث عن الإنجاب من «الشربيني».

ولم يعلق «فاروق الشربيني» على «ماهر» غير أنه ابن كفر (باكوش) وابنه، وسألته أين يقع كفر (باكوش)؟، فبهت لونه مما سمع منها، ولكنه قال لها – بعد أن ضحك – اسألي «توفيق» بيه.. يعرفه جيدًا، ولم يجب على سؤالها، وهي لم تشغل بالها بـ«ماهر» وماضيه. فالذي تعرفه هو أنه رجل الأعمال المشهور، وواحدًا من وجوه هذا المجتمع.

٣٠

تبدل الحال بعد عودتها.. كان إذا دخل «ماهر»، وضعت نفسها في أحضانه.. أما هو على عكس ذلك يعاملها ببرود.. ولكن «نجوى» كانت تنظر إلى «ماهر» على أنه الزوج المثالي.. فهو شخصية ناجحة، ويخرج من نجاح إلى آخر؛ حتى أصبح حديث المجتمع.. ولم تعرف مَنْ هو «ماهر» الحقيقي؟!

كان «ماهر» عندما يريد أن ينسى، يأخذ كأسه وينفرد بها.. وكم أخذت من على فمه الكأس حتى لا يسكر!!.. أطاعها أحيانًا، وعنفها أحيانًا أخرى.. كان عندما يسكر يتحول إلى ذئب، ينهش لحمها، فكانت تخافه.

سألت عنه أبيها لتعرف من هو «ماهر» الذي يتبدل إذا سكر.. ولم يقل لها الكثير عنه، غير أنه إنسان عصامي، بنى نفسه بنفسه.

كم اعترضت «نجوى» على علاقته بـ«خليل الأعرج».. لماذا يكون هو مساعده الأول، وهو أعرج بساق واحده؟!.. لم يجبها «ماهر»، واعتبر أن هذا من صميم عمله فلا تتدخل فيه.. فصمتت.

صارت أيام «ماهر» موزعة بين مشروعاته الناجحة وأيام له في البرلمان؛ حتى وصل إلى قمة رجال الأعمال في البلد، وأنشأ المشروعات الكبرى.. انبهرت به «نجوى»، ولم يفكر هو في أي أمر آخر.. إلا أن «نجوى» قد طال انتظارها للحمل ولم يحدث فذهبت إلى الطبيب، فطلب منها أن يخضع «ماهر» إلى بعض الفحوصات الروتنية.

دخل «ماهر» ذات يوم متأخرًا، ليجد «نجوى» في انتظاره، وقبل أن يصعد لينام، وقفت أمامه وقبلته، ثم قالت له:

نجوى: ماسألتنيش أنا كنت فين النهارده.

«ماهر»: فين؟

نجوى: عند الدكتور!

«ماهر»: ليه ألف سلامة.. ماقلتليش إنك تعبانة.. كنتي اتصلي بي.

نجوى: لأ.. ما أنت حتروح كمان ......

«ماهر» وقف ونظر إليها ونزل من درج السلم إليها :

«ماهر»: ليه؟

«نجوى» وضعت نفسها في أحضانه.

نجوى: نفسى بقى يكون لي ولد منك.. ولا مش عايز.

همَّ «ماهر» أن يقول لها أنه يعرف نفسه جيدًا، ولكن صمت وابتسم.

ماهر: حاضر يا ستي، مع أني عارف نفسي كويس.. ولكن حاضر نحدد ميعاد ونروح.

نجوى: بس أنا مستعجلة.

«ماهر» وهو يصعد السلم دون أن ينظر إليها :

ماهر: حاضر بكرة.

دخل «ماهر» حجرته لينام، ولكن تذكر أيام الخرساء والذي مضي.. حاول أن يقطع تفكيره وينام.

obeikandl.com

وفي اليوم التالي مرَّ على الطبيب الذي يعالج «نجوى»، وأتم له التحاليل اللازمة، ووعدهم أنه عندما تظهر نتيجة الفحوصات، سوف يتصل بهم.. وخرجا معًا ..هي إلى الجامعة وهو إلى عمله.

ومرت أيام ولم يسأل «ماهر» عن أخبار الفحوصات.. ولكن وجد أن السكرتيرة تطلب منه أن يرد فورًا على التليفون، فقطع اجتماع عقده.. إنهم يستدعونه فورًا إلى الفيلا فخرج مسرعًا.

وصل «ماهر» إلى الفيلا؛ ليجد «توفيق» في استقباله.. ووجد عددًا من الأطباء حول «نجوى».. عرف أنها تعاني من انهيار عصبي، ولابد من نقلها إلى المستشفى، فتم نقلها فورًا.. وعندما سألها تعللت أن العمل في الجامعة قد أرهقها وصمتت.

خرجت «نجوى» بعد أيام إلى فيلا «توفيق»، دون سبب مقنع منها.. ولكن «ماهر» لم يشغله إلا عمله فقط، واستمرت لفترة ثم عادت إلى الفيلا، وعندما قابلها «ماهر» وجد الدموع تملأ عينيها.. بل أخفت وجهها منه، وذهبت إلى حجرتها.. ثم عادت إلى فيلا «توفيق» مرة أخرى.

استمر غيابها شهورًا طويلة، كان يدعوها لأن تحضر حفلاته – التي لم تعرف سر إقامتها لها وإصراره عليها؛ لأنها كانت وسيلته في عقد صفقات الآثار، وتهريبها إلى خارج الفيلا، وسط صخب حفلاته.. ثم بعد الحفل تعود إلى فيلا أبيها.

طغى على «ماهر» الماضي وطارده حلم أمه، فقام يصرخ بأعلى صوته، وكاد يجن، فقد رأى أن «أم الخير» تدخل عليه وهي تحمل ساقها المقطوعة

في يدها، وتسيل الدم منها.. وقام إلى كأسه حتى ينس هذا الكابوس الذي كاد يقتله.

لم ينم ليلته، خرج يفكر في ماضيه وفي أمه، وخرج ذابل الوجه إلى الشركة، وذاب في العمل؛ حتى ينسى ما رأى في نومه، ولكنه إذا فرغ من عمله.. تذكر كابوسه.. حتى خاف أن يعود إلى الفيلا.

سهر «ماهر» خارج الفيلا وشرب، وعاد فنام في غرفة أخرى غير التي ينام فيها، ولكن الكابوس كان أكثر وضوحًا، حتى أنه قام يجرى إلى خارج مبنى الفيلا ويصرخ؛ وصحى كل من في الفيلا.

حكى كابوسه لـ«خليل الأعرج» الذي ضحك وقال له :

خليل: يا «ماهر» بيه – أنا أعرف إن الدم بيفسد الحلم.. ولكن مين ده اللي بيجيلك غيري ورجله مقطوعة.

انزعج «ماهر» من كلام خليل وصمت، فغير «خليل» الكلام، وخرج إلى الشركة، بعد أن عرف أن كلامه قد مس جرح في نفس «ماهر»، ولكن ما هو هذا الجرح؟ يتمتم «خليل» ويقول لنفسه: «أدي سر تاني.. ولغز تاني أقع فيه معاك يا «ماهر»».

تكررت الكوابيس والهواجس حتى كادت تقتله.. لم تتركه ينام، كان كابوسه يأتيه لو نام في النهار.. فيقضي باقي لياليه دون أن ينام عرف أن دم «أم الخير»، يناديه حتى يأخذ بحقها من «توفيق»، أوهم نفسه بذلك وأصر عليه، وانتهز فرصة غياب «نجوى» في خارج مصر.. فقد سافرت إلى لبنان حيث يعقد مؤتمر في جامعة بيروت.. ورتب «ماهر» أوراقه، وقرر أن يشد الحبل حول عنق «توفيق».

٣١

تم القبض على «توفيق» وعددًا من أعوانه الذين رآهم «ماهر» في الحفل وقت أن دعاه «توفيق» لأول مرة في فيلته.. وقتها كان «توفيق» يلوي عنق «ماهر».. ولكن كانت فرصة لـ«ماهر»؛ لكي يتعرف على كل أفراد العصابة - التي تتاجر وتنهب مال مصر.. واستغل «ماهر» عضويته في البرلمان؛ ليلف الحبل بإتقان حول عنق «توفيق» وأعوانه؛ حتى قدموا فورًا للمحاكمة جميعًا.

نام «ماهر» فلم ير كابوسه.. وأحس أن «أم الخير» كان دمها يناديه - كما كان يتوقع، بل اعتبره المجتمع بطلاً شريفًا يدافع عن بلده، ويد نزيهة تقضي على كل فساد، وأصبح أكثر شهرة من ذي قبل.

عاد يومًا ووجد ما توقعه.. وجد «نجوى» في الفيلا في انتظاره، فلم يُلق لها اهتمامًا، وصعد إلى حجرته لينام.. كان يضع في فكره أنها لابد أن تقبل الأيدي والأقدام ليطلقها؛ فهي بنت مُجرم من مجرمي هذا البلد، تربت من مال هذا البلد، وعليها أن تخضع لما يقوله لها «ماهر»، عندما سألته الصحافة عن موقفه من زوجته «نجوى» قال: «لكل مقام مقال».

ولكن «نجوى» استوقفته، عندما طلبت منه الطلاق، فضحك ضحكة تنم على النصر والسخرية، وأشار إليها أن تخرج من باب الفيلا، فضحكت هي الأخرى ضحكة خلعت بها قلبه.. فصمت ونظر إليها.

obeikandl.com

أراد أن يهرب من أمامها.. كان يظن أنها مكسورة لما فعله بأبيها.. ولكن رجعت أكثر قوة من ذي قبل.. واستوقفته وهددته أن يطلقها؛ لأنه لم يعرف حقيقة نفسه.

فعرف من كلامها أن لديها ما تقوله له.. فتوقف ونظر إليها، فوجد في يدها أوراقًا.. هبط درج السلم، عندما أشارت له بالأوراق؛ لتلقي بها في وجهه.. فنظر إليها في خوف وجمع الأوراق المبعثرة، وحاول أن يفهم منها شيئًا، فلم تمهله كثيرًا.

نجوى: «ماهر» بيه.. أنت عقيم.

نظر إليها ودارت به الدنيا، وتوسل إليها بعينيه ألا تقول ما تقوله.

نجوى: وفر على نفسك إنك تبص في التحاليل.. أنت عقيم ومفيش منك رجا إنك تخلف.. كنت بتضحك على الدكتور «فاروق».. لأ.. هو عنده أمل، لكن إنت ما فيش.

فخارت قواه وجلس على درج السلم.. فأشارت إليه بحدة وأمرته أن يطلقها.. فخاف منها ونطق بكلمة الطلاق؛ وهو يصرخ، وتركته وخرجت.. وهو مازال يصارع نفسه، ولا يقوى أن يقف.. حتى سقط أسفل الدرج مغشيًا عليه.

***

أفاق من غيبوبته؛ ليجد نفسه ممددًا على السرير.. فوجد عددًا من الأطباء بجانبه و«خليل الأعرج»، وعددًا من موظفيه، فصرخ فيهم جميعًا، فخرجوا وتركوه وحيدًا يلقى مصيره.

دار بعينيه حوله لم ير شيئًا.. ولم ير حتى نفسه في المرآة التي توجد بجانبه.. لم ير إلا رأسًا فقط.. ولم ير جسده.. خُيل إليه أن جسده ذاب في الحقيقة - التي ألقت بها «نجوى» عليه.. ذاب وقت أن سمع الحقيقة - التي خاف منها طويلاً.

كان عندما يفكر في «فاروق الشربيني».. يحاول أن يلهو بأي أمر يخرجه من تفكيره.. وهو أصبح مثله.. فقبض بيده على اليد الأخرى بعنف وقسوة، ونظر إلى مرآته.. لم ير كلتا يديه.. طمس كل شيء في هذا الجسد.. جسد ليس له ظل.. تماسك حتى قام من سريره، وذهب لأقرب حائط وضرب رأسه به.

تذكر وهو يلقي بنفسه على أقرب كرسي، ما فعله مع الخرساء، وما كان يفعله مع «نجوى».. فتوهم أن «نجوى» قد خدعته.. فكذب وصدق نفسه.. وضرب يده على ساقه فشعر بها.. ورأى جسده مرة أخرى.. فتوهم أن هذا كان مجرد كابوس من كوابيسه - التي تأتيه كل ليلة.. فصرخ وقال:

ماهر: هي كاذبة.. نعم كاذبة.. وهي تريد أن تقضي عليَّ.

ولكن نظر حوله، فوجد الأوراق - ما زالت بجانبه، ملقاة على السرير، فأخذها ونظر فيها، فإذا بالحقيقة تقف شاخصة أمامه مرة أخرى، أكثر وضوحًا، فانهار في أرض الحجرة.. يصرخ بهيستريا.

لكنه قام وخرج من حجرته.. الفيلا قد امتلأت عن آخرها.. كان يريد أن يهرب من واقعه، هبط إلى السلم ورفض أن يقترب منه أحد

يمسك بيده.. أمسك السلم ووضع نفسه على أول درج ليهبط.. خارت قواه.. كأنه ذاهب إلى حبل المشنقة.. سقط.. ثم قام.. ثم سقط، وحاول فلم يقدر ..وصرخ.

بعد أيام وجد نفسه في المستشفى.. ومرت شهور - وهو طريح الفراش.. أصر أن يعود إلى الفيلا ورجع ليواجه واقعه.. ذبل لونه ووهن جسده.. وضاقت به الدنيا؛ حتى ظن أنه لن يجد هواء يتنفسه.. الساعة قد تكون الثالثة عصرًا أو فجرًا.. ليس هناك فرق.. الوقت ليس له معنى عنده.. ذاب هو الآخر مع الحقيقة.

obeikandl.com

٣٢

لم يصدق عينيه، عندما دخل حجرته لأول مرة، منذ أن سمع الحقيقة، فانهار على أرضها وبساطها.. وقف أمام المرآة، فوجد جسمًا نحيلاً، وعينين ذابلتين- تحتها تجاعيد سوداء.. لقد جرى به الزمن في الشهور الماضية إلى سنين قادمة.. تركت عليه الأيام ما تتركه السنون.. أدخلته الحقيقة في شيخوخة.. لبس ما وقع في يده وهمَّ بالخروج.. فالسيارة في انتظاره و«خليل الأعرج» ينتظره.

تماسك حتى ينزل إلى الشركة، فقد ينسي واقعه.. وهو يعرف أنه سوف يفشل في طرد الحقيقة؛ لأنها الواقع الذي لا وهم فيه.. هبط السلم إلى باب الفيلا، ووضع نظارته – التي أهدته إياها «نجوى» في باريس في أيام زواجهما الأولى؛ كأنه سوف يرى أيامه القادمة من خلالها.. وصل إلى السيارة.. وركب.

وصلت السيارة إلى الشركة.. لم ير أي شيء في الشوارع حتى الناس؛ حتى وصل إلى الشركة.. وهبط من السيارة، ودخل وصعد ووجد نفسه خلف مكتبه.. كل من دخل إليه مرحبًا، لا يقدر أن ينظر إليه.. انكسرت عينه بالحقيقة ..كان يظن أن الدنيا سوف تعطيه كل ما يريد، ونسي حقيقتها الخادعة.. أنها إذا وهبت ذهبت.

دخلت إليه سكرتيرته الحسناء، تحمل أورقًا إليه.. لم ينظر إليها؛ ولكنه خلع نظارته وألقاها أمامه.. عندما رأته صرخت، وهربت من أمامه،

وهي تبكي من هول ما رأت.. لم تصدق عينيها.. ومنعت كل مَنْ يدخل إليه؛ حتى لا يراه بهذا الشكل.. كان يظن أنه سوف يملأ الدنيا أطفالًا تجرى، ثم رجالًا ترث ما يترك.. إن لم يكن من «نجوى»؛ فسوف يتزوج بأخرى وثالثة.....!

لم يستمر طويلاً خلف مكتبه.. أنهى ما عليه وخرج.. أمر السائق أن يدور به في الشوارع، لعله ينسى.. مشي السائق حتى ضاق هو نفسه بالشوارع التي عهدها.. نظر إليه، ففهم «ماهر»، وأشار إليه أن يذهب إلى الفيلا.

لقد اختار طريقًا واحدًا من البداية.. لم يراجع نفسه.. أراد أن يكون قويًا.. يخافه الناس ويهابوه وحدث ذلك.. سار في طريقه كالفرس الجامح الذي انفك من عقاله، فأظلمت نفسه حتى كسى الظلام كل أرجائها، ولم يبق فيها نتفة نور من إيمان.. لم يلجأ إلى ربه.. إن الحقيقة هزته؛ فلم تخرج أحجار نفسه للخارج.. بقيت وترسخت وازدادت صلابة ورسوخًا.

فالأنفس أنواع؛ منها مَنْ تهزها الحقيقة، فتخرج ما بداخلها فتصفو وتعود إلى ربها مستغفرة تائبة.. ونفس أخرى تهزها الحقيقة، فترسخ ما بداخلها من ظُلمات، فتسير إلى هلاك صاحبها.. والناس بين هذا وذاك.

٣٣

عاد «ماهر» إلى نشاطه وتحول إلى وحش كاسر.. أصبح كل همه أن يجمع المال، وزاد نهمه في حب المال.. فلم يفكر إلى من يؤول.. وزاد نشاطه في نقل الآثار.. كان ينام قليلاً لأن كابوسًا جديدًا قد جثم على أنفاسه ..« أنه رأس بلا جسد».. قد عاشه أيام أن عرف حقيقة نفسه، وهو في اليقظة، وأصبح يطارده في نومه.

شرب الخمر حتى ينام.. كان ينام على الأرض.. أو على أريكة في حديقة الفيلا.. إذا جاء له النوم ينام، وخرج من نجاح إلى آخر.

أما «نجوى» فقد علمت أن «فاروق الشربيني» قد مرض، وسافر إلى (العزبة الكبيرة).. فذهبت إليه؛ لتلتقي بـ«سلمى» و«نادية» و«أمل».. وعرفت منهم من هو«ماهر»، وشاهدت الحجرة التي عاش فيها، ورأت شجرة (الجميز) التي عُلق فيها.

مات فاروق وغادر الجميع (العزبة الكبيرة) حتى «سعاد الشربيني».. ودع الدكتور «فاروق» كل أهل (باكوش) والبلاد المجاورة.. وانتهت صفحة «فاروق» من الحياة - الذي ساعد وربى الفقراء، وكان رحيمًا عليهم لتذهب له الرحمات من كل فم فقير، فتغسل خطاياه.

***

دخل إلى شركة «ماهر» رجل رث الثياب.. منعه رجال الأمن، ولكنه أصر أن يقابل صاحب الشركة.. فمنعوه، فجلس أمام باب الشركة على

درج السلم ونام.. أخبرهم أنه صهر المهندس «ماهر»، فلم يصدقوه، وظنوا أنه محتال ويدعي كذبًا أنه يعرف «ماهر عز الدين»- صاحب مجموعة شركات «عز الدين».

حضر «ماهر» وخرج، ليشم رائحة قد عهدها من قبل.. فنظر حوله فعرفه إنه «عبد التواب».. «تاجر الحمير» بكفر (باكوش)، وزوج فوزية أخته الكبرى.. فأشار إليهم ..فاستيقظ، ليتعلق برقبة «ماهر» وسط ذهول الجميع.. فأشار إليه بالدخول فدخل، بعد أن وبخ كل مَنْ في الشركة، حتى خرج إليه «ماهر» وجذبه من كتفه، وألقى به في مكتبه.

ظل «عبد التواب» جالسًا على الأرض؛ حتى أشار إليه «ماهر» أن يجلس على كرسي قريب.. فقام وجرى إليه على مكتبه، وقبل يده.. تذكر «ماهر» أنه لم يفارق مهنته التي تربي فيها.. تذكر أنه كان يشتري كل حمار ويصبغه؛ ليبيعه إلى الفلاحين.

أمره «ماهر» أن يجلس.. فكم كرهه - رغم أنه زوج أخته، فجلس حتى انتهى «ماهر» من أعماله، أخرج مبلغًا من حافظته وألقى به في وجهه.

ماهر: خد الفلوس دي وامشي يا عبد التواب.. وإنساني.. وانسى مكاني، وأوعى أشوفك تاني.

فقام «عبد التواب» ليقبل رأسه، فمنعه بيده.

عبد التواب: اضربني إذا كان دا يريحك.. اضربني باللي في رجلك يا بيه.. أنا طول عمري حمار زي الحمير اللي بابيعها.. عايز إيه من واحد تاجر حمير زيي.

فأسكته «ماهر» وصرخ فيه ليصمت.. فصمت.. أمر له «ماهر» بكوب شاي.. ارتشفه على مهل، وهو يتحسس الكراسي التي يجلس عليها، ويخلع حذاءه ويغوص بقدمه في أرض الحجرة.

وأُخذ «عبد التواب» يتكلم في أحوال الكفر؛ حتى سمع «ماهر» ما يهمه من همهمة «عبد التواب» أن الدكتور «الشربيني» قد مات، وأن (العزبة الكبيرة) تم عرضها للبيع.. فنظر إليه «ماهر» ولم يصدق ما سمع.. فأكد له «عبد التواب» كلامه.. فأخرج «ماهر» مبلغ أكبر لـ«عبد التواب» ونادى على «الأعرج» أن يأخذه ويأويه لأيام؛ حتى يجلس معه «ماهر».

أرسل «ماهر» «خليل الأعرج» فورًا ليتأكد من كلام «عبد التواب».. فهبط على (العزبة الكبيرة)، وأكد لـ«ماهر» أن (العزبة الكبيرة) معروضة للبيع.. فغاص «ماهر» بذكرياته في كل شبر في (العزبة الكبيرة).. فهو خير مَنْ يعرف ما فيها.

لقد نسي «ماهر» كابوسه.. لكن خاف أن يفارقه كابوسه؛ لأن في كل مرة يظهر له كابوس أكبر منه.. أصر أن يشتري (العزبة الكبيرة)؛ حتى لو فقد كل شركاته، فهو يريد أن يذهب إلى السرايا؛ ليجلس فيها.. كم حلم بها!!

أراد «ماهر» أن ينسى حاضره بماضيه.. فشدد على «عبد التواب» ألا يبوح بسر قدومه إلى شركته أو مقابلته.. اشترى «عبد التواب» ملابسًا له؛ حتى تليق بالشركة التي سوف يدخلها.. وحاول «ماهر» أن يعيش في الماضي.

openkanda.com

تردد «عبد التواب» على الشركة.. وعرف منه «ماهر» أن «عادل رضوان» أصبح عمدة الكفر، ولم يتزوج بعد.. و«أمل» قد أنجبت من «مدحت رضوان».. لم يعط «ماهر» سره لـ«عبد التواب» من أنه ينوي أن يشترى (العزبة الكبيرة).

عاد «ماهر» – وهو يعيش نشوة النصر.. فهو يريد أن يجثم على قلب كفر (باكوش) مرة أخرى؛ بل أن (العزبة الكبيرة) سوف تمكنه من نقل ما تبقى في الكنز.. أخبره حارس الفيلا أن هناك من ينتظره بالداخل.. ظن أن «عبد التواب» قد عرف مكان الفيلا وسبقه إليها، فدخل مسرعًا.

ولكن وجد أن «نادية أبو طاحون» تنتظره.. فكاد لا يصدق عينيه.. واحتضنها، وكاد أن يصرخ فرحًا.. نسي كل شيء؛ حتى أمر (العزبة الكبيرة).. ولكنها أخبرته أنها جاءت له؛ لكي يحضر فرحها على «عادل رضوان» صديقه القديم.

نظرت إليه فوجدت أن حاله «ماهر» قد تبدل.. فخافت منه وهمت أن تسكت، ولكن «ماهر» أصر على أن تكمل.. وفي النهاية أقر أنه لن يوافق على هذا الزواج.

حاولت «نادية» أن تسترضيه، وتذكره أن «عادل» كان صديق الطفولة الصبي، ولكنه أسكتها وأمرها ألا تفكر في هذا الأمر مرة أخرى.. ولكنها أصرت على أمرها، فصفعها وأمر بحبسها في الفيلا.

ظلت «نادية» أيامًا في الفيلا، وأمر أن يدخلوا لها الطعام – الذي رفضته، ومنعها من العودة إلى الكفر مرة أخرى.

عاد يومًا فلم يجد حارس الفيلا، فدخل مسرعًا فلم يجد «نادية».. ووجد السيدة العجوز التي تخدمه.. فأخبرته أن «نجوى» قد حضرت بعد أن استدعاها حارس الفيلا.. وأخذت «نادية» معها وخرجت.. فطلب «خليل الأعرج» أن يحضر له بسرعة، وذهب به إلى الكفر.

وجد «نادية» تجلس بجانب «عادل»- الذي هبط إليه لكي يقبله، ولكنه أخرج سلاحه وصوبه إلى رأس «عادل» صمت الجميع.. حتى صرخت فيه «أمل» فنظر إليها وأنزل سلاحه.. ونظر فوجد «نجوى» وكل أهل الكفر حتى «عبد التواب» تقدم منه يجرى.

خرج «ماهر» مسرعًا عائدًا إلى (القاهرة) بعد أن مر في طريق (العزبة الكبيرة).. فهو كل علاقته بالكفر أن يأتي ليلاً؛ ليحمل الآثار من بطن الجسر ويمضي.

obeikandl.com

٣٤

عرف «ماهر» من «عبد التواب» أن «سمير حامد» قد خرج من السجن.. وأن «محي» قد تزوج من« سلمى» وعاش بها في (القاهرة).. وأن «سمير» يذهب إلى الكفر؛ ليسطو على ما لدى والدته ويغادر الكفر.

بحث «ماهر» عن «سمير»؛ حتى وجده في (الزقازيق)، وقد أصبح يدمن المخدرات.. فأخذه معه إلى الفيلا، واتفق معه أن يذهب إلى الكفر ليقتل «مدحت رضوان» و«محي».. ووافق« سمير» بعد أن جهز له «ماهر» السرداب؛ ليعيش فيه.

وذهب «سمير» إلى الكفر ليلاً، وتابع «مدحت» و«محي» وتربص لهم.. حتى دخلا إلى بيت «رضوان» وفي الظلام أخرج سلاحه الذي أعطاه له «ماهر»، وأطلق ثلاث عيارات؛ ليقتل «عادل رضوان»- الذي شك أنه «مدحت».. وضرب «محي»- الذي سقط على الأرض مضرجًا في دمائه.. أما الطلقة الثالثة فقد أصابت «نادية»؛ وهي تهبط لتنقذ «عادل» زوجها.. وهرب.

انتشر البوليس ولم يعرفوا من أطلق النار... فقتل «عادل» فاتهم الناس «ماهر» - الذي كان موجودا في شركته ولم يغادرها.. ولكن «ماهر» كاد يقتل «سمير»؛ لأنه قتل «عادل» وأصاب أخته، ولكن نفذ وعده له، وآواه في السرداب؛ ليجهز له الآثار.. أصبحت «نادية» لا تتحرك إلا على كرسي متحرك، و«أمل» تشرف على علاجها.

أرسل «ماهر» مَنْ يشتري له (العزبة الكبيرة)؛ حتى لا يعرف أحد أن «ماهر» هو الذي اشترى العزبة، حتى «سعاد الشربيني» نفسها لم تعرف، لأنها لو عرفت لرفضت أن تبيع (العزبة الكبيرة) لـ«ماهر»؛ حتى ترحم فقراء كفر (باكوش) منه.

لم يعرف أحد أن «ماهر» اشترى أرض (العزبة الكبيرة).. أرسل «ماهر» مَنْ يشرف على ترميم السرايا، قبل أن يحضر إليها.. وتم كل ما أراد.. توجس الناس من المالك الجديد وتكهنوا به، ولم يخطر ببالهم أن «ماهر ابن أبو طاحون» هو الذي اشترى العزبة.

***

هبط «ماهر» إلى الكفر، ولم يعرف حتى «عبد التواب» أنه هو الذي اشترى (العزبة الكبيرة).. وصحى الناس على «ماهر أبو طاحون» في السرايا.. وانتشر الخبر في كل أرجاء الكفر.

لم يعرف أحد أنه وراء قتل الخرساء، ولم يعرف أحد أنه قتل «عادل رضوان».. بل لم يعرف أحد أنه هو الذي أقعد «نادية»- مدرسة الكفر - التي تُعلم أبناءهم ولم تبخل عليهم - على كرسي متحرك.. ولم يعرف أحد أنه يسرق كنز الكفر؛ ليحوله إلى نفسه أموال، يخدع الناس بها في أعمال البر والإحسان - التي عرفت عنه.

أول شيء فعله أنه قطع شريان الكفر الوحيد - الذي يربطهم بالترعة والبلاد المجاورة.. والذي جاد به خلفه ومالك (العزبة الكبيرة)..الدكتور «الشربيني».. انزعج الناس مما فعل بهم، وعاشوا كابوسًا مزعجًا.. وأرسلوا له «حسين هجرس» وغيره، عله يعود عن قراره.. ولكن وجد

«حسين» أن «ماهر» آخر غير الذي حلم معه في صباه.. وجد «ماهر» في شكل ذئب وسكير معربد، لم يفق حتى من سكره، ليعرف مَنْ يكلمه.

لم يذهب إليه في العزبة إلا المنافقون الذين يعرفهم الجميع، وأولهم «عبد التواب»- الذي سار في شوارع الكفر وهو يصرخ فيهم ويقول: «جاء من سوف يعلمكم الأدب»... فطردوه إلى (العزبة الكبيرة)، ومنعوه من دخول الكفر، وأحرقوا بيته.

لم يهبط «ماهر» الكفر إلا مرة واحدة، ذهب فيها إلى «أبو طاحون»- الذي فقد بصره، وبات يجمع الزكاة من أهل الكفر في الأعياد والمواسم.. وطلب منه أن يجلس معه في السرايا فرفض، وعرف أن أهل الكفر بزكاتهم أحن عليه من ابنه.. فذهب إلى «سالم»- الذي تهرب منه، وظل يعمل عند «مصطفى».

عاش «ماهر» عربيدًا سكيرًا يشرب كأسه أمام الجميع؛ وهو يترنح أمامهم؛ ويسقط في أوحال وطين (العزبة الكبيرة) أمام (الشغيلة).. وشاركه الخمر «عبد التواب» حتى أصبح سكيرًا مثله.. فلعنه الناس في كل زمان ومكان.

زاد نشاطه في نقل الآثار، كان يذهب إلى الكنز - والخمر قد لعبت برأسه.. فعرف الناس أن «ماهر» يذهب إلى الجزيرة؛ ليختفي فيها ليلاً.. وتابعه رجال البوليس؛ حتى يكشفوا عن أسراره.

زرع البوليس الضابط هاني الذي عمل عنده سائقًا خاصًا، وتابعه فلم يصل إلى شيء.. وذهب يومًا إلى بيت «رضوان»؛ لكي يعرض على أخته أن تسافر للخارج، لتجري عملية فرفضت؛ بل طردته شر طردة وأغلق الناس أبوابهم في وجهه، وهو يسير في شوارع الكفر.

النهاية

خرج «توفيق» من السجن، وقرر الانتقام من «ماهر» وتابعه وبحث عنه؛ حتى كان يراقبه عند باب الفيلا، وتابعه «خليل» نفسه بعد أن فقد فيه الأمل.. رأه يقضي وقته كله سكيرًا، فخاف على مستقبله، وحاول أن يخرج من هذه اللعبة - التي يحرك «ماهر» كل خيوطها، بشيء يكمل به حياته بدلا من أن يعود مرة أخرى إلى الشارع ...طريدًا هو الآخر، فقد تأكد أن «ماهر» قد ولى زمنه، ولعبت الخمر برأسه فتتبعه هو الآخر.

تحول «ماهر» بعد أن ملك المال والسلطة إلى ذئب ينهش ويقتل.. ويستأجر العملاء، ويشي بالأصدقاء، ويشتري الضمائر الخربة؛ وظن انه يملك كل شيء ...حتى الناس!!

كان «ماهر» يعيش في (العزبة الكبيرة) أيامًا طويلة، ولا يذهب إلى الفيلا إلا قليلا.. سكر وخرج في هواء العزبة، حتى لعبت الخمر برأسه.. وفي عصر أحد الأيام ركب (الكاريتة)، وخرج.. ليمر في العزبة.. ولكنه تذكر «أمل» وحبه لها، وتذكر الماضي.. فذهب إلى الكفر مع مغيب الشمس، وطرق باب بيت «رضوان» وخرجت له «أمل» لتفتح.. فانقض عليها يقبلها، وهي تصرخ وتجري أمامه؛ حتى قابلته «نادية» وهي على كرسيها، وضربته بخشبة في يدها على رأسه؛ فأسالت دمه.. فهرب إلى الكفر بعد أن صرخت فيه.

صراخ «نادية»؛ كأنه أوقظ كل الكفر، فتجمع الناس كلهم وجروا خلفه، فيهرب أمامهم بـ(الكاريتة)، ووصل إلى (السرايا) وركب سيارته وهرب.. راح الناس السرايا ليحرقوا كل شيء فيها، وكل شيء في العزبة... وبحثوا عنه فلم يجدوه.. لقد هرب؛ حتى لم يركب معه السيارة أحد.

اختفى «ماهر» عن أعين الجميع.. فانتظره «توفيق» بجانب الفيلا.. والبوليس أيضًا تتبعه هو الآخر انتظره.. و«خليل» كان في انتظاره هو الآخر؛ وقرر أن يغدر به؛ ليحصل على مال يحميه من غول الزمن.. انتظره المنتظرون طويلاً... فلم يأت.

لم يعرف كل مَنْ أراد أن يقضي عليه؛ حتى البوليس، أن آخرون غيره يتابعوه ليقتلوه.. فلما أتى «ماهر» لم يدخل الفيلا.. ولكن دخل البناية التي أعدها خلف الفيلا متسللاً.. ولم يشك فيه أحد أنه «ماهر» لأنهم يعرفون «ماهر» جيدًا.. فانتظر هو حتى يحل الظلام، وذهب إلى (باب الموت)- الذي أعده حتى يدخله.. إذا ضاق به الأمر!!

فتح «ماهر» باب الموت ليجد« سمير» هو الآخر في انتظاره، وقد أوشكت المخدرات أن تودي بحياته.. فجمع كل ما في السرداب من أموال، وساعده «سمير» وحملا ما معهما من أموال وخرجا.. ولكن كان في انتظارهم مافيا الآثار – التي أرادت أن تقتله، قبل أن تصل له أي يد؛ حتى لا يبوح بأسمائهم.. وقد أعدوا له كلبًا شرسًا.. انقض عليه، ليقطعه بأسنانه ومعه «سمير» ليسقطا في بركة دماء.. لينتقم كلب لدم الخرساء وعرضها.. ودم «عادل رضوان» – الذي كان أعز أصدقائه.. ودم البلد

obeikandi.com

الذي كم أساله أنهارًا وهو يبيع آثاره.. ودم كل من ظلمه.. وتتناثر كل ما في الأكياس من أموال في الهواء.. فيلحق بهم البوليس؛ ليقتل الكلب ويحملون «ماهر» و«سمير» إلى المستشفى في حالة حرجة، ليلقوا مصيرًا مجهولاً على ما فعلوه.

تمت

محمود صقر

obeikandl.com